

ديوان ابن الرومي

ديوان نادر في تاريخ الشعر العربي ، تأخر نشره عن تاريخ نشر لدات الشاعر ورصفائه وهو قليل الرصفاء في الشعر العربي ، وربما كان هذا من الغبن الذي لحق بالشاعر - حياً وراحلاً - وربما كان هذا الغبن لم يلحق بالشاعر وحده ، بل لحق بتاريخ الشعر العربي ذاته ، حيث نشر في زمن الطباعة دواوين الخفاف من متأخري الشعراء والنظاميين ، وأغفل مثل ديوان ابن الرومي . .

ونشر هذا الديوان وذبوعه كان حقيقةً أن يغير كثيراً من مفاهيم نقدية شاعت بين الناس ، واتخذت سمت التقاليد المرعية ، غير أن هذا النشر أيضاً متعلق بتذوق الناس للكلام وتفتيشهم له ، وهو أمر لم يتحقق الا لدي قلة نادرة أيضاً تصبر على القراءة والنظر ، وتنفر من الرضوخ لسلطان الذوق الشائع ، ومن ثم رزق شاعر كالبحتري مثلاً الذبوع والتأثير ، ولاثيرب على الناس ولا على قريع ابن الرومي (البحتري) ومعاصره ، لكن فاء الناس إلى البحتري - الذي لم يخرج عن عمود الشعر - مغفلين صنوه ، أو صوتاً آخر به تقابل الصورة أو تكتمل ، دون الالتكاء على صوت واحد أو جملة أصوات متقاربة ، مهما بلغت هذه الأصوات .

وربما كانت بدوات ابن الرومي ، وسهواته الجبارة التي شاعت عنه ، وراء شيء من إجفال النظر إليه ، وإيثار السلامة عن خوض غابة غير مأمونة ، وتلك هي بدوات النحس والتشاؤم ، فخيلت لكل من يهتم بالشاعر أنه ملاق شيئاً من العواقب والنذر ، وقد ظل الشاعر حياته كلها تحت وطأة هذه القالة ، مُحلاً عليه في موارده رهين كسر بيته ، ورويت في ذلك شائعات تواترت عنه ، ونشط خياله أو وهمه الوثاب أو ذهنه المضطرب فصور له أن الأمر حقيقة واقعة ، واستغل الخبشاء - وهم آفة كل العصور - أعصاب هذا الرجل المسكين ، يتلعبون بها ما شاء لهم التلعب ، فضاقت عليه الدنيا ، أو ازدادت ضيقاً ، حيث لم تتسع ولم تتراحم أمام عينيه يوماً ، وصدق العصر الحاضر هذه القالة أيضاً . . فما يكاد

أحد يقترب من الشاعر أو يفكر فى مصابقته ، إلا وتلعبت به حوادث المصادفات فأمن الناس أو كادوا ، وإذا الفراش الذى يغشى النار أو الهارب منها سواء . اهتم بديوانه جعفر والى باشا وكيل نظارة الحقانية فأقيل ، ونشر طائفة من شعره فى مجلدين الشيخ محمد شريف سليم بك ، عميد مدرسة دار العلوم - ربما كان أول نشر عربى لديوان الشاعر ، مشفوع بالشرح والتقويم - فلاحق به أذى لم أحققه بعد . . والعهد فى هذه الرواية على الأستاذ العقاد سماعا - وأصدر كامل كيلانى مختارته فى ثلاثة مجلدات ، بتصدير العقاد سنة ١٩٢٤ ، وحسبها الناس ديوان ابن الرومى ، فلاحقته خسارة شديدة ، ويقال أيضا أن مدير المطبعة «سيد بك» مات ، وتجاسر المازنى على التوفر على ديوانه المخطوط بدار الكتب المصرية ، وكتب عنه مقالات مسهبة فى «حصاد الهشيم» سنة ١٩٢٤ - وهى من أدق المقالات ، التى كتبت عن الشاعر وشعره - فهبضت ساقه ، لسبب لاتهاض له السيقان ، وظل الرجل أظلع بين الظلع حتى رحل فى ١٩٤٩ .

وكتب عنه العقاد كتابه الجليل «ابن الرومى . حياته من شعره» وهو أهم كتاب كتب عن الشاعر على الاطلاق ، مع نفورنا من «أفعل التفضيل» فى كل ما نصدر من آراء نقدية . . لكننا نراها فى محلها الصحيح ، فسجن العقاد تسعة أشهر بتهمة العيب فى الذات الملكية ، وتوفر على قراءته ونخله الأستاذ على الجندى الشاعر ، عميد دار العلوم ، فبقى فى درجته الوظيفية ثمانية عشر حولا كريتا ، حيث رقى زملاؤه !! وتمتد هذه القتامة إلى عباس خضر حين تحدث عن مختارات كيلانى ، مكتفيا بها عن ديوان ابن الرومى ، بعد أن نفص عن مخطوطته الغبار - كما قال - شامتا فيه : يستاهل !!

لأن شعره لا يروق له ، ونحن نزعم بل نكاد نوقن أن عباس خضر لم يقرأه ، وربما لم يره مكتفياً بالشائعات التى تنطلى حتى على المثقفين من أمثال عباس خضر ، أو أن ذوقه قد مرد على الشعر الذى لا يحوج متلقيه إلى بصر وزكاة ، وما هكذا يكون شعر ابن الرومى ، ففقره بما يستحق .

وهذه المصادفات التى اقترنت بابن الرومى حديثا ، لم تكن إلا من قبيل الأفافيه ، التى تبعث على الابتسام فى أغلب الأحيان ، غير أن ابن الرومى شأن

كل مصادفة تقع للناس فى الدنيا ، ولم تكن بمثنية رجالا لم يقفوا عندها ، وكان اهتمامهم من قبيل الاهتمامات «المباركة» لم يتعلق بها نحس أو تشاؤم .

اهتم به العقاد والمازنى وعلى شوقى (ت ١٩٥٩) فى سنة ١٩١٢ ، وأقبلوا على قراءة مخطوطته فى دار الكتب ، متلومين لدى نونية الشاعر التى يمدح بها أبا الصقر :

أجنت لك الوجد أغصان وكثبان فيهن نوعان : تفاح ورمان

وهى من فرائد شعره ، فعارضها كل منهم بقصيدة من وزنها ورويها ، وذاعت القصائد ذيوغاً كبيراً - درّست لطلابى القصائد الأربع سنوات مطولة ، ولم يحدث إلا الفأل الحسن - وشاء محمد مصطفى الماحى أن يلحق بالمعارضين ، فنظم قصيدة على غرارها ، ولعل هذا حدث حين كانوا يعملون معاً فى ديوان الأوقاف ولم يعارضها شكرى حيث كان فى إنجلترا ، وغدا كتاب العقاد عن ابن الرومى من أمهات المصادر عن الشاعر وشعره وكذلك مقالات المازنى ، وإن كان أغفلها حسين نصار حين نشر ديوان الشاعر محققاً ، وتلاحقت الدراسات عن صاحبننا ، فأخرج (روفون جست) كتابه : ابن الرومى حياته وشعره ، و«ابن الرومى» لمحمد عبدالغنى حسن ، و«ابن الرومى فى الصورة والوجود» لعلى شلقى ، و«ابن الرومى شاعر الغربة النفسية» لفوزى عطوى ، و«ابن الرومى» لأحمد خالد ، إلى جانب فصول مسهبة أو غير مسهبة فى كتب تعرض للعصر العباسى ، وهى دراسات تتفاوت جودة وتوسطاً ، ورداءة ، وبعضها يكتفى بنقل الدراسات السابقة عليه ساطيا دون أن يشير أو يضيف شيئاً ذا قيمة ، وآخر هذه البحوث رسالة جامعية لهناء عابدين بأداب سوهاج «ابن الرومى بين ناquديه فى القديم والحديث» ، وعرضت للشاعر فى نقص نقدى جيد .

ظل الديوان حبيس المخطوطات وآخر عهدهى به ١٩٧٢ حين كنت أقارن بين الشاعر والمازنى عكفت عليه ، فى دار الكتب المصرية بباب الخلق - نضر الله أيامها - ولم أر عنتا فى القراءة والنقل اليدوى ، لأنها نسخة شديدة الروعة والدقة ، حتى قيض الله للديوان رجلاً مسرف الشجاعة حسين نصار ، فى صبره

ودمائه طبعه ، فأخرج الديوان مع طائفة من تلاميذه فى ستة مجلدات ، وقد تعقبت نشرته بالتصحيح اللغوى والعروضى فى دوريات متعددة حتى جمعتها فى كتابى «أدب ونقد» ١٩٨٨ ، وأشهد أن الرجل تلقى ملاحظاتى بصدر متراحب ، وحنو شديد ، شاكراً ومحياً ، ثم صدرت الطبعة الثانية من الديوان فصنعت اللجنة بملاحظاتى صنيعا لم أرضه ، حيث صححت ، وحين تركت التصحيح - يبدو عدم اقتناعها بما قلت - كررت خطأ الطبعة الأولى ، ونهت على ذلك فى جريدة الأهرام وأرجعته إلى «سهوات ، ابن الرومى الجبارة ، أو ملاحقة «النحس المبارك» ، وحملته على محمل الفكاهة معرفا بأن حسين نصار لم يراجع الطبعة الثانية ، وإلا كان يشير أو يأمر بالاشارة إلى كاتب هذه السطور !!

وثمة نشرة للديوان صدرت بعد نشرة حسين نصار بحوالى عقدين من الزمان اضطلع بها عبد الأمير على مهنا ، ونشرتها دار ومكتبة الهلال فى بيروت الطبعة الأولى ١٩٩١ ، وأشهد أننى لم أرها ، وإن كانت الباحثة السوهاجية اعتمدت عليها أحيانا .

وجاءت اعتماداتها فى غير موضعها كما أشرت إلى ذلك حين ناقشتها ، كما أشهد أننى رجل غير حسن الظن بطبعات بيروت فى نشرات التراث ، حيث تغلب التجارة الأمانه العلميه والدقة ، ورفض قديما (اميليو غرثيه غومث) نشرات لبنان واعتمادها فى البحوث الجامعية ، ومعه حق كثير ، لاتعصباً إقليمياً ، بل إحقاقاً لما نراه ونعتقده .

ولعل من جملة الأسباب التى عاقت نشر ديوان ابن الرومى ، والنسيئة فى إصداره ضخامة الديوان بصورة شديدة لافتة للنظر ، وكان القدماء والمحدثون يرسلون هذا الحكم دون إحصاء ، فراق لى أن أقوم بشئ يسير من ذلك مقارنا بينه وبين شعراء عصره بصفة عامة :

١ - ابن الرومى : ٢٠٣٩ قصيدة عدد الأبيات ٣٠٥٣٠ .

٢ - مهيار الديلمى : ٣٨٧ قصيدة ، عدد الأبيات ٢٢٥١٥ .

٣ - البحترى : ٩٣٣ قصيدة ، عدد الأبيات ١٥٨٥٥ .

٤ - الشريف الرضى ٦٨٥ قصيدة ، عدد الأبيات ١٦١٩٩ .

٥ - أبو العلاء المعرى ١٧٠٢ قصيدة ، عدد الأبيات ١٣٥٩٥ .

٦ - أبو نواس ١٠٠٠ قصيدة ، عدد الأبيات ٧٥٣٧ .

٧ - أبو تمام ٤٨٤ قصيدة ، عدد الأبيات ٧٢٥٦ .

٨ - المتنبي ٢٨٦ قصيدة ، عدد الأبيات ٥٣٥٧ .

وبين يدي قائمة مطولة بأبى العتاهية وأبى فراس ، وبشار بن برد ، والعباس بن الأحنف وغيرهم ، وكلها تؤكد حقيقة لا حجاج فيها ، وهى أن أطولهم قامة هو شاعرنا ، يليه مهيار وقصائده مطولة جدا ، وبها ثقل فى إطالتها وربما كان للدم الفارسى دور فى هذه الإطالة لأن شعراء الفرس تطول قصائدهم طولاً غريباً ، وإن كانت الثقافة العربية غالبية ، وشعرها أغلب ؛ لأن طول النفس يكاد يكون خصيصة شخصية قبل أن يكون خصيصة لغوية ، أما أبو العلاء فتغلب عليه المقطعات خاصة فى اللزوميات ، وينبغى أن نذكر هنا لزوميات ابن الرومى ، فى مطولاته خاصة الدالية ، التى التزم فيها الفتحة قبل حرف الروى :

أبين ضلوعى جمرة تتوقد على ما مضى أم حسرة تتجدد

وبلغت ٢٨٢ بيتاً ، وهو طول غير معهود فى لزوم ما لا يلزم ، يدل على ثقافة جنانة ، وسعة صدره فيما تضيق به الأنفاس ، كما ينبغى أن نؤكد أيضاً أن الطول ليس المحك فى تفضيل شاعر على شاعر ، لكن إذا أضيف إلى الإطالة الإجادة ، فقد شأى الشاعر من تقدمه ، وأعيا من يأتى بعده ، وهكذا نرى شعر صاحبنا حين يطيل وحين يقصر ، وما أسهل الشعر عليه ، كما قال القدماء ويقول المحدثون حيث استوت بديهته وفكره ، ولم نر هذا الاستواء لدى غيره إلا عند أحمد مخيمر من المحدثين ، لا يكاد كلاهما يلقي بباله إلى الكلام ، حتى تهطع إليهما أجياد الكلام النافرة ؛ فإذا هى مأنوسة سهلة القياد ، وعبرة «استواء البديهة والفكر» ، قالها ابن الرومى حين تعجب الناس من سرعة نظمه قصيدته البائية :

نجاك يا ابن الحاجب الحاجب وأين ينجو منى الهارب

وبلغت ١٠٧ أبيات ، نظمها فى ساعتها ، وليس فيها حرف مصلح ، ولعله يصف بهذه العبارة التى نطق بها عفوا شعره كله ، وكل شعر جيد لا تبين فيه أمارات المشقة . . وقطرات العرق وغبار الرحلة ، التى تبدو أحيانا فى صورة معاذلات ، ولايعنى ذلك أن الشاعر لا يعانى ، بل إنه يدخل الحومة شاكى السلاح ، متخذاً لأمتة ، فارساً عريق الفروسية .

وديون ابن الرومى دخل فى نسيج الذاكرة الشعرية للأمة ، رغم الغبن الذى لقيه ، والشعراء كالناس عموماً وكالأشياء بعضها محدود وبعضها غير محدود بالنسبة للضوء أو العتمة ، لكن لانظن أن شاعرنا قديماً وحديثاً - خاصة فى الحديث - يشكو عدم ذكره ، ربما يشكو فى حياته السغب والمخمصة ، وأصابته حرفة الأدب فى الصميم ، وأوغل الحرمان فى أعصابه ، فأسرف فى الملاذ حين تتاح له وجنى عليه عقابيل لم تفلت منها عافية الشاعر عصياً وجسدياً ، دخل الديوان فى ذاكرة الأمة ، فلا يخلو سفر من أسفار الأدب والتاريخ واللغة من ذكر الشاعر حتى ولو كان ذكر الإقذاع والنكير ، وعاب عليه المتحشون شعره الهجائى ، وإن كانوا طربوا له فى خلواتهم - نعتقد ذلك - واقفين عند تصويره الحى المبدع ، ولقطاته الفنية التى تفضح المصورة الأمانة ، لأنه يضيف إلى التصوير مشاعره وما هكذا تصلح المصورة ، وهجائيات ابن الرومى نمط وحدها فى هذا الباب ، وما أظنها - على إفحاشها - زادت عدد السفاحشين واحداً ، وحسناً أن صدر ديوان الشاعر بتحقيق حسين نصار ، وفيه تلك الأمانة والشجاعة التى تحلى بها المحقق الجليل ، ولم يخل بتلك الأمانة مستجيباً إلى تلك الأصوات التافهة من المنافقين المضللين الضالين !! .

عرف المشاركة ديوانه فى حياة الشاعر ، وعرفه أهل المغرب والأندلس ، ولقب الأندلسيون أبا عبدالله الرصافى بابن الرومى ، كما هو شأنهم فى التلقب بألقاب المشاركة ، رجالاً ونساء ، وإن كنت أرى البون الهائل بين الرصافى وبين شاعرنا إلا إذا كان وجه الشبه وصف الطبيعة ، وهو وجه مفارقة لا وجه مشابهة ، شتان بين الوصفين ، لكننا حين نرفض الموازنة ، نتخذ منها شاهداً على ما نؤم من ذبوع الشاعر المشرقى لدى أهل الأندلس . و«ذخيرة» ابن بسام الشترينى وتوفى

٥٤٢هـ تمتلئ صفحاتها باحتذاء الأندلسيين لابن الرومي ، فى صورته ودقته ، واستدراكاته ، وشتان أيضا بين الأصل والتقليد ، ويدل هذا أيضا على شدة استقصاء ابن بسام وقوة حافظته ، وإن كان ألف كتابه «والنفس غير جميع» ومع ذلك بانته ذاكرته التى لاتكاد تخرم شيئا ، لأن تقيل السلخ والأخذ والإغارة والنهب - كلها ألقاب للسرقاى الأءبىة قءىما - إنما تنال بها الءاكرة وقت القراءة والتأليف ، ءون مراءعة للأصول غالبا .

على مءى ثمانية أجزاء يطل طيف ابن الرومى فى الءخيرة ، ويطل قبلها فى تلافيف الءاكرة الشعرى للشعراء الءىن تعقبهم ابن بسام ، ولعل ءىوان ابن الرومى رءل إلى الأءءلس فى حياة الشاعر نفسه ، وإن كنا لم نءكر من اضطلع بءمله إليها . . لكن ءوران الرءلة الءائب بين بءءاء والءواضر المشرقية بعء سكون بازى الءلاف بين الأموىىن فى الأءءلس وبءءاء العباسىة يؤكء الءقىقة الأءبىة ، التى عززها الاستقراء والشواءء الشعرىة ، وإن غمض علينا ناقلو الءواوىن ، ولكننا هنا نءكر المءتنبى إء ءمل ءىوانه زكربا بن الأشء الءزائرى الأصل إلى الأءءلس ، ومارس تأثىرا هائلا ، ببء أن هناك تأثىرا رومىا ، فى الشرق وفى الأءءلس على السواء ، وىءعلق بهءاء شاعرنا للورء وتفضىله للئرجس ، ألفء كتب ونظمت قصائء معارضة ، وشائمة لابن الرومى ، أقلها أنه «جُعلى» ىموت هذا الجنس الءشربى من الورد ، وكان مبلء ما قاله ابن الرومى مءتجا :

أىن الءءوء من العىون نفاسة وراثسة لولا القىاس الفاسء

ومءتبع هذه المءركة الشعرىة مءرك بلا ربب مءى تقصى ابن الرومى للمعنى ، واءءجاجاته الشعرىة القصىة عن بروءة الءهن «ءسن البىان يرى الظلماء كالنور» كما ىقول هو نفسه .

ظل ماء الشعر عءء ابن الرومى ىسرى فى أعراق الءاكرة الشعرىة ءهرة أءىانا ، ومستترا فى أءىان كثرىة ، لءرءة أن رجلا كشوقى لم ىتلبث لءبه كثرىا ، واعترف بءلك للءقءاء ءىن صفا الأمر ببىنهما قلىلا ، وأقلعت السماء عن غىمها ءاعىا إباء لءفلة شائى ، سأل شوقى العقاء عن سر إعجاببه بابن الرومى - وكان النقاء

يتندرون بإعجاب العقاد فى مجال الغض من الشاعرين - فأجابه العقاد مفصلاً الحديث ، فما كان من شوقى إلا أن قال : سوف أعيد قراءته لكنه كان بأخرة من عمره ، فلم يتح له أن يعيد .

قيض الله للشاعر العباسى أن يكشف أسداف الخمول الجائر عنه ، رجل فى مطلع حياته الأدبية هو العقاد ، وأن يكشف خير ما فيه - وفيه خير كثير - فقرأ ديوانه على مكث هو والمازنى خاصة ، وهما الشاعر إلى نفسيهما وإلى مفهوم مخالف للشعر غير المفهوم السائد ؛ ولذا نعتقد أن ابن الرومى حيث التقيا به ، إنما التقيا بصديق قديم على بعد الشقة ، وقرت لديهما عقيدة شعرية أن ابن الرومى قرين لشعراء أوربيين يقرآن لهم ، دون ذوبان فى أحد ، ودون أنى يكشف الأوربى ما هو قار لديهما فى التراث الصحيح ، وتلك هى الفائدة المرتجاة من التأثير والتأثر، كما نعتقد أن مفهوم الديوانيين للشعر امتداد لمفهوم قديم فى التراث العربى مع نفحة شخصية؛ ذلك المفهوم الذى تسعد فيه الفكرة الشعرية الوجدان الصحيح ليطيروا بجناحين من الخيال ، وكان ابن الرومى مع قرنائه الكبار : المتنبى ، والشريف ، وأبو تمام والمعرى وإخوان هذا الطراز ، هم السلف الصالح فى التراث الشعرى العربى ، وإذا خلا ديوان العرب من تلك الأسماء .. فماذا يبقى؟

عارضه العقاد والمازنى ، وعلى شوقى ، وسرى فى شعر شكرى تشاؤماً وانقباضاً؛ حيث تشد نحيزته هذا اللون من الشعور والكلام واستأثر بالعقاد كثيراً فى استدراكاته ، وإخراج ما يتوهم أنه داخل فى المراد ، واللفتات الذهنية البارعة ، وفى السخرية ، وفى علو نبرة التشاؤم - خاصة فى بواكير العقاد - وفى مطاوعة الكلام ، على حين كثرت قراءاته فى الآداب الأجنبية ، فالتقى الوافد والأصيل فى نفس تهضم وتستوعب ، ولو لم يكن العقاد - شأنه شأن كل شاعر أصيل - على نسقه النفسى ومطارح فكره لما كان لديه قابلية لأن يتأثر بكائن من كان ، ولو كان ابن الرومى شاعره الأثير .

كذلك كان الشأن مع صديقه المازنى ، تشاؤماً ، وحزناً مضماً ، وسخرية حتى من نفسه ومن وجهه كما صنع صنوه البغدادي قديماً :

شغفت بالخرّد الحسان وما يصلح وجهى إلا لذى ورع
كى يعبد الله فى الفلاة ، ولا يشهد يوما مساجد الجمع

وتعلو النبرة لدى المازنى فيهبو نفسه شكلاً وموضوعاً ، ويرثى نفسه فى سخرية
مريرة كاشفاً ما تواضع عليه الناس من زيف ونفاق .

انظر إلى وجهى الشميم اللعين .

وجاءت قراءة المازنى للشريف الرضى معجباً به وبصاحبه القديم ، والشريف
أجزل شعراء العربية ، فأعدته الجزالة ، ونعده أجزل جماعة الديوان ، دون أن
نستثنى أحداً ، وإن كان بعضهم يناهزه كعبد الرحمن صدقى ، وعلى شوقى ،
وأحمد مخيمر من شعراء ما بعد الديوان ، وامتزج الشريف وابن الرومى فى دم
مازنى لا ينصل لونه ، مع أمشاج متباينة من الشعراء الأوريبيين ؛ مما جلب عليه
تهمة الإغارة والسرقة ، ونفخ فيها التيار المحافظ ، وأرّثها جماعة أبوللو ، ولا
نزال نعتقد أن ديوان ابن الرومى فى حاجة إلى قراءة دقيقة ، وتذوق رفيع ؛ حيث
امتد تأثيره خارج نطاق الديوانيين ، وكان محمود شاکر (أبو فهر) من قرائه
الأصدقاء ، تشهد قراءة شعره بهذه الصداقة التى لاتخفى ، كما نعتقد أنه فى
حاجة إلى مختارات ، وإذا جاز الاقتراح ، فأرجو أن تنهض دار الهلال بطبع
مختارات الشاعر ، وأرجو ألا تخشى من بدوات الشاعر المتشائمة ، وسهواته فى
النحس ، ولعلها حين تذيب بين الناس تكفكف غرب هذه «السمعة» غير الحسنة ،
وعلى كاتب هذه السطور «التعويض» المناسب حيث أخذت عهداً وميثاقاً غليظاً من
الشاعر فى مرات كثيرة ، - آخرها أننى أتداوى بقراءة شعره - أن يكون مأمون
البادرة ، فإذا أفلحت فلإننى أرجع ذلك إلى «بركات» ابن الرومى . وما ذلك
بعزيز .

ديوان المتنبي

فى الخامسة أو نحوها كان مجلس عزاء يضم جمهرة من قراء القرآن الكريم ، يتذكرون الفائدة المالية التى تدرها عليهم المصائب ، فإذا بأحدهم ينشد «مصائب قوم عند قوم فوائد» بضم الدال فحفرت فى نفس الصبى ، يومئذ ، كما استمع فى هاته السن إلي بعض العوام ينشد متمثلاً :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته

وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

ينطق الكلمة الأخيرة «تنمردا» وإن فى بداية الشطر الثانى «وإذا» مع كسر الوزن» ثم أتيح له فيما بعد أن يقرأ هذا الكلام فى ديوان المتنبي ، فأدرك إلى أى مدى كان الرجل مجدودا سائرا على ألسنة الناس وقد «أصبح الدهر منشدا» كما قال فى قصيدة أخرى ، وذكرته هذه السيورة بما ذكره الرواة - باختصار - عن شأنىء للمتنبي أقسم ألا يقيم فى بلد يذكر فيه الشاعر أو شعره ، فارتحل لطيته ، وكلما حل ببلد سأل أهله هل يعرفون الشاعر فيجيبونه بالإيجاب ، فيرحل حتى وصل إلى محلة سأل أهلها عن الشاعر فلم يذكره أحد ، فحمد الله وألب بالمكان حتى كان يوم الجمعة فصعد الخطيب المنبر وبعد حمد الله والثناء عليه ، قال :

أساميا لم تزده معرفة وإنما لذة ذكرناها

وهو بيت ذائع من قصيدة ذائعة للمتنبي ، فإذا بالشانئ يعود إلى بلده من جديد قائلاً : هذا الرجل كالقدر لا يقاوم !!

هذه السيورة فسرهما المازنى فى دراسته المسهبة عنه فى «حصاد الهشيم» «بقوة» الشاعر ، ورجعها العقاد إلى «الحسد» مظهر كل فضيلة ، وكان المتنبي شديد الشعور بهذه الخلعة ، حتى سمى ابنه «محسدا» وحتى إن الأيام يحسد بعضها بعضا «وحتى يكون اليوم لليوم سيذا» .

والحق أن أبا الطيب رزق من القوة كفلاً عظيماً ، ورزق من حسد الحاسدين كفلين من العذاب الذى تلذه النفس القوية ؛ لأن غير المحسود كائن لا يستأهل الحياة حيث إنه عاطل من المواهب التى يُحسد الناس من أجلها ، خامل من معانى الرجولة أو الإنسانية ، خلو من الأخلاق العليا التى تثير الغيظ ، وتشعل النار فى العرفج ، وقد أحسن ابن رشيح حين وصفه «ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس» ، وهى كلمة نافذة تصدق على جبابرة المواهب وأفذاذ العقول .

وقد أحس المتنبي بهذا المعنى فقال :

أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

وما كان الرجل إلا نافذ النظر إلى ما وراء سجع الغيب ، فلم يصف زمنه فحسب ، وإنما امتد حتى يومنا هذا ، دون أن يغالط أو يغالى فى تعبير شعرى كعادته وعادة نظرائه حين يفخرون .

جاء المتنبي إلى الدنيا فى مستهل القرن الرابع ، وكان أوان النضج والقطاف فى كل ما زرعه الحضارة العربية الإسلامية ثقافة وسياسة ومذاهب ونحلاً ، وطوائف وشيعاً ، وقد اعتورها ما يعتور الحضارات وأهلها من شيوع المطامع والشغب ، والدسائس والمؤمرات ، وكانت الكوفة خاصة بماء الشاغبين ، فالتقطت باصرته وبصيرته صورة هذه الحياة وعاشها ، واكتوى بنارها ، ونضجت فى شعره حكمة منخولة بحكم نحيزته المتأملة ، وكأنه لم يلتقط الصورة حسب بل خلقها ، ولذا لا ينظر إلى هذه الحكم كأنها خلاصة دراسة وتأمل ، وإفادة من قراءاته ، ربما تفيده الدراسة والقراءة ، ولكنها لا تخلق منه الشاعر الحكيم لولا أنه مهياً لها سليقة ، وكأين من شعراء حكماء قرأوا ما قرأ ، ولم يكن لحكمهم مثل ما رزقته حكمة المتنبي ، حيث تعمل البدهة وفحولة الشاعر عملهما فى كل ما خطته يراعيه .

المتنبي رجل مأزوم ، وكل الشعراء عادة أصحاب أزمات ، لكنها هينات لينات فى طبائع الشعراء الذين يخف محمل الدنيا عليهم ، بيد أن صاحبنا ورث هذه الأزمات ، واكتسبها ، فغدت أزمته الفذة ، كانت جدته قد أسرت إليه بحقيقة نسبه العلوى . واحتمل الرجل هذا السر . تعالى به مراحل فى أمة تقيم للأنساب

كل وزن ، وتحيفته وضاعة هو براء منها . وكشف هذا السر أو وقع عليه الاستاذ محمود شاكر فى كتابه الرائد عنه ، كما تحمل الشاعر نبزه بالنبوة وأفسح لها من كلامه ما يشرح هذا المغمز لواصب ، ودافع عنه أبو العلاء لغويا بأنها من «النبوة» أى الارتفاع ومرض الأستاذ العقاد فى الرواية وإن كان يرى أن الذى غمزه بها إنما هو من جبابرة الشياطين ، فى دراساته عن المتنبى فى مطالعات فى الكتب والحياة ، وهى دراسات غير مسبقة خاصة فى مقارناته بين المتنبى وفلسفة القوة لدى نيتشه ، والبقاء للأقوى لدى داروين ، واطلع عليها دون إميليو غريشه غومث عميد المستشرقين الإسبان فى دراسته الجيدة والبلغة عن الشاعر ، الذى نعت به بأنه شاعر العرب الأكبر وإن كان لم يشر إلى إفادته ، وقد ترجم هذه الدراسة فى أمانة وبلاغة د. الطاهر مكي .

وهذه النبوة التى قرف بها المتنبى لعلها نسيت وأسدل الستار على بواعثها ، ونحن لانؤمن بها ولا نعتقد أن الشاعر ارتضاها ، رغم الحكايات التى تشاكه الأساطير وتنسب إليه بعض المعجزات ، فهذا من الملح الذى يشوب النوادر والحكايات ، ولم يكن الشاعر ممن تجوز عليه الغفلة أو استغفال الآخرين فيصدق فى نفسه هذه المثلبة ، وثمة شاعر حاول أن يعلل هذه التهمة فقال عنه :

هو فى شعره نبى ولكن ظهرت معجزاته فى المعانى

صحيح أن شاعرنا بعيد المطامح ، شديد الاعتداد بذاته ، لكننا نحسب للتعبير الشعرى حسابه فلا نأخذه كحقائق الرياضيات . ولذا فكل تعبيراته فى هذا المقام تحسب للمبالغة الشعرية حسابها ، دون أن تفتت على حق الشاعر فى كبريائه الباذخة ، التى ترى أنها فوق كل محل يرتقى ، وكل عظيم يتقى ، ويجوز الفخر فى الشعر حين لايجاز فى النشر كما يؤكد القدامى .

فى شاعرنا كثير من طموحات دون كيخوتى دى لامنشا ، وكثير من أحزان هاملت الأزلية ، لكن يغلب تعقله سذاجات فارس لامنشا ، وتغلب إرادته أحزان هاملت وتردداته ، إنه نسيج وحده - حين قيلت هذه العبارة أول مرة - قبل أن تلوكها السنة الابتذال .

كان المتنبي مجدودا ، ذائع الصيت ، تزدف إليه تيجان الأمراء فى زمنه ، وينشدهم الشاعر مدائحہ جالساً مثلهم ، أو يجلسه الأمير مكانه . ولكن ذلك لم يُرض مطامحه ، فخيّل إليه أنه خلق للملك والسياسة واصطنع إليها الذرائع غير المزرية بالطبع ، ولم يكن الرجل إلا واهماً لأنه من رجال النظر والفن ، ولو كان الزمن أسعده بهذه الولايات لخسرت الإنسانية - لا العربية حسب - فقد مسح الزمان بذيلولة على كثير من الأسماء ، وبقي مذخوراً مصوناً كل ما خطه قلم المتنبي ، وما هذا بالشئ الهين أو اليسير .

لقد غدا شعره فى سمع الدهر ووجدانه ، وحل فيه أرفع محل حتى فى حياة صاحبه ، وحتى تغيب العربية من الدنيا ولن تغيب إلا بغياب الحياة ، جمع المتنبي ديوانه فى حياته ، وأرخ لكثير من قصائده ، وأرخ أبو فهر للديوان كاملاً . وقامت حوله معارك فى حياته وخاصة مع النحاة والشائنين عليه ، واصطفى الشاعر صديقه ابن جنى بشرح ديوانه وغوامضه ، وكان يحيل سائليه عليه ، وكان ابن جنى - وهو ممتع بإحدى عينيه - كفاء هذه الرسالة فشرحه لم يقف عند اللغة والنحو ، بل كان يطفيه أن يجرب نظر الأديب البلاغى ، وإن كان بعض معاصريه يقرفه بأنه تبدل حمارة حين يمد عينيه خارج اللغة والنحو ، وما نظنها إلا المعاصرة!! .

وقد تعددت شروح الديوان قديماً وحديثاً ، كما تعددت الدراسات عنه وعن الشاعر لدرجة يمكن أن نطلق عليها اللفظ المعاصر فى الجامعات الأوروبية «كرسى شعر المتنبي» وليس من هدف هذه الكلمة أن تحصر هذه الدراسات أو الشروح ، وحسبها أن تشير إلى بعض منها ، واعتمادنا فى ذلك على تحقيق د. عبد المجيد دياب لمعجز أحمد ، وبعض هذه الكتب مع المتنبي ، وبعضها شديد التشنيع عليه ، وطرف منها يلتزم «الوساطة» وكما هو حال القاضى على بن عبد العزيز الجرجانى ، الذى صبغت مهنته قاضياً طريقة حكمة فالف الوساطة بين المتنبي وخصومه ، وقد سبق أن ذكرنا ابن جنى . وله شرحان ، وللمعري شرحان ، والواحدى ، وابن فورجة ، والتبريزى ، والسمعانى ، والأعلم الشتمرى . والإفلىلى ، والأنبارى ، وابن وكيع ، والعكبرى ، والدانى ، والخوارزمى ،

والعروضى ، والربعى ، وابن القطاع الصقلى وابن سيدة والحاتمى ، والجزرى ، والعميدى وغيرهم ، كما شرحه حديثاً البستاني ، والبرقوقى ، وإن كان الأخير أفاد من شروح قديمة تنخل منها ما تنخل ، وذاع هذا الشرح وطبع مرات متعددة .

ولا تكاد تخلو دراسة عن شعراء العربية من اسم المتنبى أو الاستشهاد بشعره ، وربما كان الكتاب الإمام ، كتاب شاكر عن الشاعر ، فهماً واستيعاباً ، وتذوقاً للشعر ، أما كتاب طه حسين عنه «مع المتنبى» فليس أفضل كتب طه حسين ، وفيه نظر كثير من فهم الدكتور للشعر وصاحبه ، وربما كان الرجل ينظر إلى كتاب (بلاشير) ، وهو مثل غيره من المستشرقين يباشرون العربية وخاصة شعرها بلسان أعجمى ، ونفوس أشد عجمة أحياناً، حيث لا يبلغ غور الشعر العربى إلا أصحاب اللسان والأفذاذ منهم خاصة ، وقد اعترف غوث الإسباني بشجاعة بهذه الحقيقة رغم نفاذه فى فهم المتنبى ، فقال إن المتنبى خلق عالماً ربما يعسر علينا نحن الأوروبيين النفاذ إليه، وهى كلمة حق بريئة لأن المتنبى محير فى ذرع القلة أن تغوص معه ، وإن كانت له الآيات البيّنات فى حكمه السائرة ، لكننا نأخذ منها بقدر حفظنا من الفهم والفتنة ، كما أن المتنبى ، فيما نعتقد كان يصوغ الفكرة الشاعرة فى قالب كان ينتظر هذه الفكرة ، فهى تخرج وعليها ميسمه غير مموهة ، حيث هى موشوجة بلحمة ودمه وأعصابه ، وإن كانت فيها إثارة من كلام سابق .

ومن الدراسات المتعمقة عن المتنبى وشعره ما كتبه العقاد منجماً ، عن فلسفة الشاعر وعن صناعته ومقارنته بالمفكرين العالميين ، سابقاً بهذه المقارنة المدرسة الأمريكية ورائدها رينيه ويلك بعقود من الزمن ، وكان الغالب على المقارنات المدرسة الفرنسية التى تحتّم التأثير والتأثر ومسالكه ، وكذلك موازناته بين المتنبى وأبى تمام حيث ارتأى أن للأول عالماً ، وللثانى إجادات ، وأسهم المازنى بدراسات جيدة عن المتنبى وفلسفته ، وشعره فى حصاد الهشيم ، ولعل مثل هذه الدراسات كانت تؤكد فى نظر أصحابها ومعاصيرهم ، أن التجديد الذين يدعون إليه له سند ركين من التراث الذى يمثل سلامة الشعر وسلامة الطبع ، ويرون أيضاً أنهم يكتشفون مناطق غير مأهولة فى النظر النقدى ، كما هو الحال فى دراساتهم لابن

الرومى وأبى العلاء ، والمتنبى وغيرهم ، وليس من هدف هذه الكلمة استقصاء الدراسات عن المتنبى . فهي تحتاج إلى بيلوجرافيا يحرز بها صاحبها درجة جامعية .

ولديوان المتنبى بابة رحبة فى الأندلس ، لا تقل عن اهتمام المشاركة به ، وربما كانوا هنالك وراء البحر يريدون أن يقولوا بلسان الحال أو المقال إن شئت - نحن وإن شطت بنا الديار فإن لنا رحماً ماسة بالمشرق ، وربما فقنا المشاركة فيه ، ولعل إقامة المتنبى فى مصر مهدت له أن يلتقى بطلبة العلم وشيوخه من أهل الأندلس ؛ حيث كان للمتنبى ما يمكن تسميته «صالون» ، وكانت الرحلة دائبة فقد تلمذ له وسمع منه أبو بكر الطائى ، وإبراهيم المغربى ، وزكريا بن الأشج وهو الذى حمل معه ديوان المتنبى إلى الأندلس ، وأثر هذا الرجل فى تلاميذه النابهين مثل منذر بن سعيد البلوطى ، وابن الفرضى ، وكلاهما علم فى بابيه ، وقد شرح ابن الأشج ديوان المتنبى . وإن كان لم يصلنا شرحه ، لكنه - بلا ريب - تناثر فى مؤلفات الأندلسيين فيما بعد ، وقد رأينا أكثر من واحد يلقب بالمتنبى من شعراء الأندلسيين ، وربما كان ابن دراج القسطلئى أهم شاعر تأثر بالمتنبى فى معارضات الأندلس له وهى كثيرة - من أشهرها الرائية «باد هواك صبرت أم لم تصبر» وقد عارضها شوقى حديثاً فى قصيدته عن الأزهر ، وشتان بين الشعراء الثلاثة فى كل شئ ، فالمتنبى لا يلحق شأوه ولا غباره ، وماذاك إلا للنفحة ، أو الفحولة البادية فى كلام صاحبنا شاعر الكوفة العظيم ، وفى كتاب «أدب ونقد» لكاتب هذه السطور موازنة بين المتنبى وابن دراج .

لا ينبغي أن تؤخذ الدواوين القديمة والمعاصرة بموضوعات القصائد أو بالأحرى بعناوينها ، لأن قصيدة المدح أو الرثاء أو ما يسمى بشعر المناسبات ، إنما هى من صميم الشعر الصادق وخاصة من مثل المتنبى ، فضلاً عن أن فى تضاعيف القصيدة تصويراً لصاحبها وتدسساً خفياً لمكانن هذه الشخصية ، وهكذا كان شعر المتنبى . . إنه إهابه وتجليده ، ومعارف وجدانه .

وصياغة المتنبى صياغة نادرة ، وصفه الناس بأنه هَجَامٌ على المعانى ، وهذا صحيح ، لكنه لا يهجم ، إلا وقد غدا شاكى السلاح لمنازلة عنيفة ، تؤدى

فرائض الفكرة وفرائض الفن ، وكان له من متانة طبعه ما يبنى بها جواسق وحصوناً ، لا يتسلل إليها وهي إلا كما يتسلل إلى أى كائن تجرى عليه أعراض النقصان الذى هو خصيصة بشرية ، لكن سلمت له جواسقه وحصونه مهيبة جليلة ، حيث كان شعره أقرب إلى الجلال منه إلى الجمال ، وإن كان لم يتحيف حق الجمال ، لأنه الجمال العاطل الحالى بالقوة والصدق ، حيث كان كلام بعض نظرائه يعرف «مضغ الكلام وصبغ الحواجيب» .

ويشئ ديوان المتنبي بله يصرح بدمامة الأمارات الموكوسة التى شهدتها وغدا شاهد صدق عليها . وشد الرجل حيازيم راحلته باحثاً عن أمير ماجد فى زمن أفلت فيه شمس المجادة ، وحفل بكل عبد فى مسلاخ حر ، وارتأى فى سيف الدولة قريناً له فى مجادنه وفى فروسيته ، وفى ذياهه لعلوج الروم ، يصرخ فيه الدم العربى ، وكان حزن الشاعر جليلاً بقدر أحزان أمته ، وهوان أمرائها ، وكأنه يشاطرنا حزننا من وراء الغيب !!

لزوميات المعرى

هذا ديوان رائد فى تاريخ الشعر العربى ، وتمتد ريادة حتى العصر الحديث ، الذى شهد ثلاثة دواوين ، كان أولها «لزوميات مخيمر» للشاعر العبقري أحمد مخيمر ، ونصّ على أنه على درب أبى العلاء ، وثانيها للشاعر عبد العزيز السعدنى ، وهو بقال من مدينة الزقازيق ، ثالثها «لزوميات أبو همام» لكاتب هذه السطور ، وتابع هذا النمط فى دواوينه الأخرى .

وحين نقول ريادة أبى العلاء لا نعنى أنه غير مسبوق ، فقد شرع له الطريق جمهرة من الشعراء مثل ابن أخت تابط شرا فى «لاميته» المشهورة ، وكثير عزة فى «ثانيته» ، وابن الرومى الذى ركب منه ضرورياً من القول ، لكن هؤلاء لم يجعلوه ديدنهم فى كلامهم ، ولم يتخذوه مطية فى كل ما كتبوا ، بل كانوا يركبونه لماما ، ولم يفرّدوا له الدواوين ، غير أن شيخ المعرة ركب قاصداً على حروف المعجم ، فى مجلدات ديوانه الممهور بهذا الاسم ، ويعنى أنه يلزم نفسه ما لا يلزمها من عدم الاكتفاء بحرف روى واحد ، من باب السعة والاقتدار ، وكان محصوله فى اللغة يسعده فى هذا ، واللغات الأجنبية تعرف هذا النمط ، وتسميه «القافية الغنية» 'La Rima Rica' ، كما يعرف النثر العربى مثل هذا الضرب . ومنه «المقامات اللزومية» للسرقطى الأندلسى ، وكان المعرى وقرناه - وليسوا فى قامته ، وقليل ما هم - يرون غير اللزوميات ما يمكن أن يسمى «الشعر الحر» بمعنى آخر غير المعهود الآن ، وقد ركب أبو العلاء أيضاً فى ديوانه الأول «سقط الزند» .

وفى حدود ما أعلم ، كان المعرى أول شاعر فى العربية يطلق على مجموعاته الشعرية أسماءً محددة ، على غير ما هو متواتر قبله ، مثل ديوان فلان من الناس ، وما بعده أيضاً حتى عرف العصر الحديث التسميات ، وكان المعرى رائداً حتى فى هذه المسألة الشكلية ، وربما كانت غير شكلية فى حالته ، فسقط الزند أول كلامه فى المنظوم ، واللزوميات جاء مصلياً بعد ذلك .

ولقد ارتبط المعرى بالتاريخ الأدبى لهذه الأمة وعسير على التخيل أن يسقط من ذاكرة الأيام من حسب الأيام وحاسبها ذلك الحساب العسير وهبه سقط ، فماذا يبقى فى هذا التاريخ الأدبى ، إلا النفر القليل من سابقيه : ابن الرومى ، أبو تمام ، أبو الطيب ، الشريف الرضى وإخوان هذا الطراز ، لعل الخريطة الشعرية كانت ستطلع إليه ليسد الثلم الذى يحدثه غيابه ، ولعله أيضاً - وهو الفارك للحياة التى يسميها «أم دفر» لتنتهها - قد سخرت منه الحياة كما سخر منها طوال أيامه ، فأرخت له فى جبال العمر ، ليخنق السادسة والثمانين وكان يتمنى أن تنجذم هذه الآصرة له ولغيره :

فليت وليدًا مات ساعة وضعه ولم يرتضع من أمه النفساء

وهو الرجل الذى همدت فيه نوازع اللحم والدم أو على الأقل كانت موزوعة لامدفوعة ؛ نظراً لبنائه الوهنان ، وحرمانه من لذائذ الطعام والشراب ، اقتداراً منه ، وزهادة ، قد أهدقت به السجون الثلاثة كآبة وعجزاً :

أرانى فى الثلاثة من سجونى فلا تسأل عن الخبر النيث

لفقدى ناظرى ، ولزوم بيتى وكون النفس فى الجسم الخبيث

غير أن وجدانه المتوفز ، وعقله الجبار كانا يفسحان له أن يشرف على الوجود والعدم من على ، وأن يراقب الأشياء مراقبة الندس اللبيب ، وكانت إحاطته بالعلوم والمعارف فى زمنه حرية أن يتنفس من خلالها كل نفس وكل نأمة .

وجدت السليقة العربية فى أبى العلاء نموذجها الذى يمثلها أوفى تمثيل ، فهو ينتمى إلى الأرومة العربية نسباً وداراً ، وثقافة ، وعاش عصراً مفعماً بجلائل الأحداث ، ونالت قريرته «المعرة» طرفاً من هذه الحوادث ، وتدخل فيها الشاعر متشفعاً فحقن الأحداث قبل أن تتفاقم ، ومع ذلك ظل نادماً أن خرج من محبسه ، وقرية المعرة غدت ذائعة الصيت ، بفضل شاعرها ، وكأين من مدائن كبرى تغبطها وتحسدها هذا الشرف الرفيع .

تحدث الناس قديماً وحديثاً عن ثقافة أبى العلاء وتراحبها ، كما تحدثوا عن عقيدته ، بعضهم يرفعه إلى مصاف الملائكة المقربين ، وآخرون يهونون به إلى

مدارك المردة والشياطين ، غير أن الرجل كان مثل الناس من ماء وطن ، لكنهم اصطلحوا على ثقافته وشاعريته ، وزهادته ، وحسبه هذا .

كانت «اللزوميات» فتحاً مبيناً في الشعر العربي لا بتشكيلاتها الموسيقية فحسب ، وإن كانت واردة ، ولكن بما تثيره وبما تحتويه ، واستن الرجل فيها لنفسه مهيعاً خاصاً ، طرقة بعضهم قبله وبعده لكنه المتفرد «وماقصابات السبق إلا لمعبد» ، ونعتقد - والمعري من الشعراء الأصدقاء الذين نعود إليهم دائماً - أن اللزوميات هي الشعر الحقيقي للمعري ، أو وجهه الأول حين تزدهم الوجوه . وأن «سقوط الزند» يمثل ملامح أولية أو «قرزمة» المعري مع نضجها ، نقول ذلك وفي وعينا ما قاله السقادة عنها إنها نتيجة اللعب والعبث ، أو هي فكر لا تسرى فيه أعراق الشاعرية كما ألفها الناس ؛ لأن الفكر في رأينا دائماً وجه أساس في بناء الشعر ، ولم يكن المعري بعيداً عن هذا الرأي ، حين نعت لزومياته بأنه توخى فيها صدق الكلمة ، ونزهاها عن الكذب والميط ، ولا يعنى ذلك صدق الواقع وجفافه وبرودته لأن الخيال صدق أيضاً ، ولم يكن المعري على كل حال من رجال الخيال الجامح المتوثب ، وإن كانت له في اللزوميات لقطات من غريب الخيال ، حين تصور مثلاً أن التراب الإنسانى تتبدل به الاحوال ، ويتغرب بعد بلا الأجساد ؛ حيث يقول :

ويحمل من دارٍ لأخرى ومادري ثواها له بعد البلى يتغرب

ومثلٌ يجزئ عن أمثلة ؛ لأن مثل هذه الغرائب تساوره كثيراً في كل اللزوميات .

تحدث المؤرخون عن حجم اللزوميات وعدد الكراسات التي كتبت فيها ، وأجملها أستاذنا الدكتور حسين نصار في صدر تحقيقه لها ، والمحك أنها كثيرة ، والاختلاف في عدد الكراسات لا يعتد به ، حيث لا ندرى حجم كل كراسة ولا ما حوت ولكننا ندرى أنها حظيت باهتمام الناس قديماً وحديثاً روايةً ودرايةً ، حيث شرحها البعض أو أجزاء منها ، كما جعلها الباحثون موضوعاً لرسائلهم الجامعية ، وآخرهم رسالة تحت إشراف كاتب هذه السطور للباحث المجتهد محمود الطويل عن «اللزوميات : دراسة أسلوبية» بعد أن درس في الماجستير شعر الشريف الرضى : دراسة أسلوبية .

وعسير أن يعدد المرء الدراسات التى قامت حول المعرى ، لكننا لا نغفل دراسات طه حسين ، والعقاد خاصة فى كتابه «رجعة أبى العلاء» ، وتصورها خيرى شلبى رواية ثانية للعقاد بعد «سارة» . ولكن العقاد احتذى فيها المعري فى رسالة الغفران ، وهما «رجعة أبى العلاء» نط فريد فى الدرس الأدبى والنفسى المعاصر ، وبين يدى دراسات كثيرة بمناهج متعددة لدراسة المعرى وشعره ، ومنها أيضاً عدد خاص من مجلة «الهلال» يونيو ١٩٣٨ ، اختص بجوانب متعددة من أبى العلاء ، وكتبها أفاض ذلك الزمن الجميل .

ولدى أيضاً طبعات متعددة من «اللزوميات» ، أقدمها وأهمها طبعة حجرية منقولة عن مخطوطة كتبها عبد الواحد بن عبد الرافع أواسط صفر ٦٣٩هـ وحضر لمقابلتها محمد بن عبد الجبار بن محمد المالكى ، لخزانة الأمير أبو زكريا المقدسى ، والطبعة الحجرية تمت فى الهند ١٣٠٣ هـ فى المطبعة الحسينية ، وعليها هوامش وتعليقات شديدة الفائدة منقولة من المخطوطة ، ثم طبعت فى مطبعة الجمالية بمصر ١٩١٥م - ١٣٣٣هـ ، توفر على تصحيحها وتفسير غريبها أمين عبد العزيز ، وفى سنة ١٩٢٤ طبعها أمين عبد العزيز الخانجى بتقديم كامل كيلانى ، فى جزئين من مجلد واحد ، وثمة طبعات أخرى ، آخرها كما ذكرنا آنفاً ١٩٩٢ بإشراف دكتور حسين نصار ومجموعة من تلاميذه ، وأفاد من الطبعات السابقة ، وبخاصة الطبعة الحجرية .

والملاحظ عموماً على تلك الطبعات خاصة فى الشروح التفسير اللغوى القليل جداً ، وربما يأتى الشرح للكلمات المعروفة ، وتترك الكلمات التى فى حاجة إلى شروح ، ولا تسلم تلك الطبعات أيضاً من بلاءات المراجعة المطبعية التى هى ديدن القائمين على الطبع الآن إلا من رحم ربك وهم قليل ، كما تنفشى أخطاء العروض وتسميات البحور بغير أسمائها الصحيحة ، ولعل مركز تحقيق التراث ورئيسه عالم جليل (د. حسين نصار) يتدارك هذا الفأث ، وفى نسختنا تصويبات فى اللغة والعروض ، نقدمها حسب لوجه صديقنا أبى العلاء ، وصديقنا حسين نصار .

للزوميات سحر خاص يقع فى شبابه الناس من أهل الشعر والأدب ، وربما

يقبل عليه من كان فى الشرخ من الشباب ، حيث يشعل فى نفوسهم - وهى مشتعلة - الغضب والقنوط ؛ لأن الرجل - رغم بعده عن شرّة الشباب إبان نظمها- كان عارم السخرية ، عاتى القنوط ، فيعوذ به الشباب الذين لا تعطيهم الحياة بقدر طماحهم وآمالهم فيستديرون الدنيا وهم أشد تعلقاً بها وإقبالاً عليها ، حيث الظمأ أشد ، وهكذا يظل أبو العلاء يسخر منا ومن ذاته ومن قوله الذى نردده معه :

أف لما نحن فيه من عنت
ما النحو ما الشعر ما الكلام وما
فكلنا فى تحيل ودلس !!
مرقش والمسيب بن علس ؟
أو من قوله :

أعللت علة «قال» وهى قديمة
ولعله كان يعنى «القول» وهو عليل أجوف ، حين لا يجدى القول شيئاً بجانب «العمل» ، كما نعى شيخه المتنبى : «قد أفسد «القول» حتى أحمد الصمم» ، لكننا مضطرون إلى «القول» ولو عليلاً وإلا :

مل المقام فكم أعاشر أمة
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها
أمرت بغير صلاحها أمراؤها
وعدوا مصالحها وهم أجراؤها
لا تستقيم لناكح أقرائها
تعباً وفاز براحة فقرائها
وتجادلت فقهاؤها من حبها
وإذا زجرت النفس عن شغف بها
فكأن زجر غوبها إغراؤها

ولعلنا نرضى أبا العلاء بعض رضى بهذا «القول» عنه ، أو لا نرضيه فالأمر لديه سواء ، لأنه أخذ علينا متوجهنا حيث صوته يهتف من وراء القرون :

إن مدحونى ساءنى مدحهم
وخلت أنى فى الشرى سخت

الحماسة البصرية

هذا كتاب غبين !

ومؤلفه أشد منه غبنًا ، وأعدى ذلك الغبن محققه !!

والكتب كالناس بعضها محدود ، وبعضها غير محدود ، يتقدم بعضها وحقه التأخر لو أقسطن الموازين ، ويتأخر منها كثيرًا من يستحق التقديم والصدارة .

لم يرزق كتاب «الحماسة البصرية» كِفله الواجب من العناية كما رزقت «حماسات» آخر ، وحقها ذلك الرزق الذى تيسر لها على يد جلة من العلماء والمحققين قديمًا وحديثًا ، كحماسة أبى تمام ، والحماسة الصغرى ، وحماسة البحرى ، وحماسة ابن الشجرى وبقية هذه القائمة من الحماسات وما هو من طرازها أو قريب منها مثل كتب المختارات الشعرية ، حتى فى العصر الحديث ، حين نشرت «الحماسة البصرية» قبل هذه النشرة كانت شيئًا رديئًا لا يجوز الاتكاء عليه أو الثقة به .

أما الغبن الذى لحق بمؤلفها ، فشئ غريب ، وقدك أن المحقق أجهد نفسه فى التنقيب عنه ، فلم يظفر بكبير طائل ، إلا ما يكون من طراز التقريظات ، والجمل المدحية التى لاتفيد غناء ، ولعل اسمه هو الذى نجا من غيلة النسيان ، فهو أبو الحسن على بن أبى الفرج البصرى ، ويعجب المحقق كيف أهمله أصحاب التراجم ، ولم يكن الرجل نكرة ، وإن كان قد عثر على اثنى عشر تقريبًا ألحقها - مشكوراً - بآخر الكتاب ، وهى كما قلت جمل متشابهة تكرر نظائرها فى ترجمات أخرى ، وحسبك أن ترى مصداق ذلك فيما يقوله ابن العديم عن البصرى :

«الشيخ الأجل الكبير الفاضل العالم الكامل ، جامع أشتات الفضائل . . لسان الأدب ، وحجة العرب ، الراقى فى مدارج العلوم إلى أعلى الرتب . . .» والمؤرخ صديق ومعاصر للبصرى ، ومع ذلك لم يذكره فى تاريخ حلب ، وهما «بلديان» ،

لا أود أن أقول : إن المعاصرة حجاب ، ونَفَس المؤرخ على الأديب ، غير أنى أضيف إلى عجب المحقق - إبراءً للذمة - أن تاريخاً أو جزءاً من ذلك التاريخ لم يصل إلينا ، وفيه ترجمة للبصرى ، وإذا طبقنا مقاييس العصر الحاضر فربما لا نجد ذكراً فى كتب النقد لبعض الشعراء الذين ليسوا من سِنخ هؤلاء النقاد ، فابتلعوا ألسنتهم ، وربما يرد على خاطر هنا الدكتور محمد مندور الذى أرخ للشعر المصرى بعد شوقى ، وأغفل شعراء لهم وزنهم لاختلاف الاتجاه ، مثل أحمد مخيمر مثلاً . فهل نقيس الحاضر على الماضى ، ونرى لدى ابن العديم شيئاً من ذلك ؟ لكننا لانسير فى هذا التساؤل إلى النهاية ، لأن مؤرخ حلب قرظ «بلديه» ، وإن كان لم يؤرخ له ، مع أنه أرخ لرجال أقل شأنًا منه - كما يقول المحقق - وأغفله كذلك ابن خلكان وهو معاصره ، ولم يستدركه ابن شاکر فى «فوات الوفيات» وتجاهله الصفدى فى «الوافى بالوفيات» !!

حتى تاريخ وفاة البصرى لم يتم تحديدها بدقة ، مع أن الأمة العربية تهتم بتاريخ «الوفيات» أشد من اهتمامها بتاريخ الميلاد ، لأن الذى يكون من غمار الناس ويشتهر تعرف وفاته أكثر مما يعرف ميلاده ، حتى محقق الكتاب أصلح تاريخ الوفاة على صدر كتابه «المتوفى بعد سنة ٦٥٨هـ» بدلاً من ٦٥٦هـ ، المهور بها الكتاب ، فهل بعد ذلك غبن لرجل قرظه اثنا عشر عالماً من خيرة علماء الأمة !!

كان الرجل فى زمن الفتنة المبيرة ، وعاش لحظاتها الأخيرة ، من هجوم التار الكاسح على الديار الإسلامية بغداد وبلاد الشام ، وقتل الملك الناصر فى الهجوم على حلب ، وقيل إن البصرى كان مع الملك وقتل ، مع أن هذا الرأى مرص فيه المحقق ، ورجح أن وفاته بعد سنة ٦٥٨ هـ .

سرى الغبن بعدواه إلى المحقق وأن أن نذكره : وهو الدكتور عادل سليمان جمال ، أستاذ الأدب العربى بجامعة أريزونا بأمريكا ، منذ أمد غير قليل ، وأسهم بقسط وافر من التحقيق ، فقد جمع شعر الأصوص الأنصارى وحققه ، كما حقق شعر حاتم الطائى ، والمنتخب فى محاسن أشعار العرب - نال هذا التحقيق جائزة مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٩٦ ، كما حقق كتابه الذى نحن

بصدده الآن ، وأسهم أيضاً فى جمع مقالات شيخ العربية محمود محمد شاكر ، ونشر مجموعة كبيرة من أشعار أبو فهر ، مشفوعة بتقديم ضاف وتحليل نقدى ، إلى جانب مقالاته المتنوعة فى الشعر واللغة والنقد والمخطوطات بالعربية والإنجليزية .

ورجل هذه جهوده كان محله الصدارة ، وإن كان يعرفه حاق المعرفة المشتغلون بالأدب والنقد والتحقيق ، ولكن ربما لبعده عن الوطن السنين ذوات العدد ، وزيارته له غبا ، حجب عن جمهرة الناس فضلاً وعلماً ، والرجل أيضاً غير مقتحم للزحام ، وموارد الإعلام ، قانع ومقتنع بمتعته التى يعرفها من ذاقها ، حيث يكشف عن مادة شاردة ، أو أبدع قصية فى اللغة ، أو يكتشف شاعراً طمس الزمن اسمه ، هذه المتعة لا يملك أحد حببها عنه ، ولا الإدلال بها عليه ، وهو عاكف على هذه المخطوطات منذ كان طالباً بالمرحلة الثانوية ، واكتشف مخطوطة ذلك الكتاب ، وتلمذ لأعلام العصر : فؤاد سيد ، وعبد السلام هارون ، والسيد صقر ، وأبو الفضل إبراهيم ، وحسن كامل الصيرفى ، والشيخ الأكبر محمود شاكر - الذى عاشه أربعين حولاً كريئاً ، وصاحب رفيقه العلامة محمود الطناحى .

غير أن ثمة غبنا من وجه آخر ، ربما لا يكون للمحقق سبب ظاهر فيه ، وهو أن المحقق استجابة لرغبة «أبو الفضل إبراهيم» تقدم بكتابه إلى لجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٩٧٠ ، ومضت ثمانى سنوات حتى خرج الجزء الأول مليئاً بالأخطاء ، وبرئ منه المحقق ، بعد مشكلات ذكرها لامجال للإفاضة فيها ، ثم كان وجه آخر لحق بالكتاب وبالمحقق ، وهو أنه صدرت نشرة له فى الهند بتحقيق مختار الدين أحمد ، وفيه من الغرائب ما لا يخطر على بال ، وحسبك أن حذف المحقق نصف الكتاب ، مكتفياً من المقطوعة ببيتها الأول ، وغابت المراجعة والتحقيق والضبط والتخريج ، والتراجم للشعراء ، ولا أظن أننى أتخف القارئ بشيء من هذا إلا بأن أرجو منه أن يراجع مقدمة عادل سليمان ، وهو لم يأت إلا بنماذج صارخة من ذلك التحقيق الهندى البديع .

وكان يمكن للمحقق أن يهاجسه خاطر التقاعس عن النشر لولا أنه ارتأى - إلى

جانب التحقيق الغريب - أن الكتاب يمكن أن يحقق أكثر من مرة ، خاصة مع اكتشاف نسخ جديدة أو رؤية جديدة ، وهذا ما كان من عادل سليمان ، الذي نشط لنشرته ونحن معه فيما ارتأى ، وكأين من كتاب تعاوره كثير من المحققين ، لكن نشرة واحدة تأتي تنسى سوابقها كما صنع أبو فهر فى «طبقات فحول الشعراء» .

وقف عادل سليمان على نسخ كثيرة من المخطوطة ما بين خطية ومصورة ، بلغت ثلاث عشرة ، عرف أكثرها ، واعتمد ثلاثاً هى : نسخة راغب باشا ، وكانت فى حياة المؤلف ، وهى العمدة ، ونسخة عاشر أفندى ونسخة نور عثمانية ، وللمحقق كلام جيد عن هذه النسخ وغيرها ، لا يجزئ عنه كلامنا .

وعادل سليمان خلق ليكون محققاً ، فالمخطوطات عشقه أخلص لها فأخلصت له ، وأفضت إليه بمكنون أسرارها ولديه قدرة فذة على قراءة خطوطها ، واقتراحات القراءة ، يجيل بصره فى النص فيدرك زبدته ، ويعرف غشه من سمينه ، وقد سلخ من عمره سنوات ، لا يكل ولا يفتر عن جهد ، وصبر ، وربما يفتى بعضنا عفو الخاطر ، لكنه - وهو المحقق - يبحث فى المظان ، عارفاً بواطنها المضمونة بها على غير أهلها ، ومنهم عادل سليمان ، ومحمود الطناحى - نور الله ضريحه - .

أفاد البصرى من مختارات سابقة ، أو من حماسات سالفة أقربها إليه حماسة «أبو تمام» - لا أحب إعراب الكنى ، إنما أبقئها على حالة واحدة - وكسرهما على أربعة عشر باباً هى الحماسة - المديح - الرثاء - الأدب - النسيب - الأضياف - الهجاء - مذمة النساء - الصفات والنعوت - السير والنعاس - الملح والمجون - ما جاء فى أكاذيبهم وخرافاتهم - ملح الترقيص - الزهد والإنابة .

ولعل هذه هى أبواب الشعر وأغراض القول ، وإن كانت بعض الدلالات تختلف ، فالأدب - مثلاً - يعنى التخلق بمكارم الأخلاق ، ولعل المؤلف أيضاً لم يخرج عن الإطار العام الذى تختتم به الكتب عادة وهو الزهد والإنابة ، أو ما كان يسميه الشعراء والوشاحون الأندلسيون : المُمَحَّصَات ، والمكفرات ، لكننا نلمح إلى أى مدى كان العالم المسلم - والصالح منهم - لا يتورع عن ذكر الملح والمجون

والترقيص ، وفى الأخير شعر لن تسمح به الأعراف التى تواضع عليها من يخونوها فى وحدتهم ، وحسبك أن ترقص امرأة «هنها» بكلام راقص ، لن يزيد من عدد الطالحين واحداً ، أو امرأة ترقص ولدها متمنية أن تراه يقعد مقعد الرجل من المرأة بكلام صريح ، تلك أيام قد خلت حين كان بنيان الأمة قوياً غير وهنان لا تؤثر فيه مثل هذه الأفاكيه ، يفتح صدره وعقله للرياح فلا تعصف به ، بل يقابلها ببسمة وحسبها هذا .

والبصرى - وإن تقيل حماسه أبو تمام - خرج عنه مستقلاً ومستتاً طريقه ، إذ أضاف ثلاثة أبواب ، هى : الأكاذيب والخرافات وملح الترقيص والزهد والإنابة ، وتوسع فى الملح ضاماً إليها المجون ، كما أنه يطيل أحياناً فى مختاراته ويذكر مقطعات بينها صلة ما ، مثل : تشابه المعنى ، وتداخل الشعر أو لأدنى ملابسة ، وإن كان يخرج عن الباب .

والمختارات - عامة شعرية ونثرية - أحدث صيحة الآن ، وتقذف المكتبات العربية والعالمية بأعداد وفيرة منها ، وهى طريقة قديمة عرفها العرب بكل أنواعها ، تدل على ذوق المختار ، وذوق العصر ، والقارئ الذى تتوجه إليه ، وحفلت المكتبة العربية - حتى فى العصر الحديث - بنماذج جيدة منها ، وإن كان بعضها يختار من الشعر الإنسانى كله منتخبات ، وربما كان صنيع العقاد فى «عرائس وشياطين» دليلاً على ما نؤم .

وحماسة البصرى تكاد تبلغ ضعف حماسة أبو تمام واعتمد المؤلف على دواوين ومجاميع شعرية ، بعضها حفظته الأيام ، وبعضها سقط من ذاكرتها ، ولولا البصرى ما وقفنا عليها ، وتبلغ القصائد والمقطعات فى هذه النشرة تسعاً وسبعمئة وألف قصيدة ومقطعة .

والمحقق يقف على هنوات للمؤلف يفردها بالذكر سواء أكان ذلك فى المنهج ، أم فى نسبة الشعر ، وروايته ، ناخلاً الآراء المبثوثة ، فى تجرد وحيدة دون أن يصيبه ما يصيب المحققين والمؤلفين عادة من الانحياز لموضوع درسهم ، وكان هذا ديدنه - ولا يزال - منذ طراءة السن ، وشرة الشباب التى تدفع إلى الحماسة ، ولكنها كانت حماسة موزوعة فى كل حال .

أضاف عادل سليمان زيادات نسخة «عاشر أفندي» ، وزيادات نسخة «نور عثمانية» فضلاً عن التقاريط ، لكن الشيء الضخم - والعمل كله ضخماً (وصل إلى ٢٢٨٦ صفحة من القطع الكبير) - الذى عاناه المحقق هو تلك الفهارس الجامعة التى تنوء بها العصبة من الرجال ، فى زمن لم يكن يعرف الآلات الحاسبة والدقائق التكنولوجية. بلغت ستة عشر فهرساً ، نذكر منها فهرس الأشعار ، والشواهد ، والشعراء والأعلام : الأفراد والأمم والقبائل ، والخيل ، واللغة وهو أضخم هذه الفهارس وأنفسها شأناً ، وفيه من الغريب والغرائب ما يجب الوقوف عنده ، وفهارس النحو وضرائر الشعر وفيها كلام جيد ، وقد صحح كثيراً من الأوهام اللغوية ومن نسبة الأبيات ومن صوابها ورواياتها المتعددة ، ومن هذه التصويبات نسبة الأبيات المشهور نسبها إلى عوف بن محلم الشيبانى وفيها ! .

إن الثمانين - وبلغتها - قد أحوجت سمعى إلى ترجمان

حيث عزاها إلى سميه «عوف بن محلم السعدى» ، وهو عباسى بينما قرينه جاهلى ، وقبل هذه الفهارس ثمة شرح للقصيدة أو المقطعة ، مقترن بها فى الهامش مع ترجمة للشاعر وتخريج لأبياته . وناقش عادل سليمان الدكتور مصطفى الشكعة والدكتور عز الدين إسماعيل مناقشة موضوعية ، رائدها البحث عن الحقيقة ، حين هوّن الأول من قيمة الحماسة البصرية ، وأنها من جملة الحماسات الكثيرة ، ورد المحقق هذه النظرة بأن البصرية أضافت واحداً وخمسين شاعراً وست شواعر إلى ما نعرفه من الشعراء القدامى وحسبها هذا ، ورد على تهوين عز الدين إسماعيل من مؤلف الحماسة البصرية ، فى اختياره أبياتاً مفردة ، مع أنها قليلة جداً - كما أحصى المحقق - بلغت ثلاثة مواطن فلا ينبغى اتخاذها ظاهرة ، مع أن المثال الذى ذكره عز الدين مقترن بببيت آخر فى نسخة «راغب باشا» ، وثمة ملاحظة أخرى لعز الدين حول بعض الأبيات المختارة مرتين غثائتها ، ورد عليه المحقق مفصلاً القول فى الغرض الذى تساق فيه الأبيات من الهزل والمجون ، ويقتضيان مهياً من القول غير جاد الأغراض ورصينها ، فضلاً عن أننا نرى أن ذوقنا لا يجب أن نسحبه على ذوق الأعصار الخوالى ، فربما يكون ما نستعجبه ممدحاً لدى القدماء ، دون أن يعنى ذلك عدم نقد ذوقهم فنحن نملك من

الحرية ما يملكون، ولنا أن نرى فى الشعر غير ما يرون ، ولكن المثل الذى سيق هنا مستهجنًا ، يجب وضعه فى إطاره الماजन العايب الذى يشد لجة المتحشّنين الذين يجبرون الشاعر المجهول على تعلم القراءة والموارث ، ولعله كان أميًا ، أو عالمًا بالقراءة والكتابة يتعابث بلحى الحمقى ، كما يقول المتنبى فى «قافيته» الذائعة .

ومادة الكتاب مشرقية ، بل هى فى جملتها جاهلية وإسلامية ، وأموية نادرًا ، وعباسية من ندرة الندرة ، بل إنه بعد النسخة الأولى حذف من تاليها كثيرًا من أشعار المتأخرين ، وأتى بها المحقق فى الزيادات ، ولسنا ندرى سر هذا الاختيار ، مع أنه متأخر زمنًا عن «أبو تمام» مثلاً (٢٣١ هـ) والتالين له ، فإذا كان لهؤلاء مندوحة فى وقوف اختياراتهم عند أمد محدد فما مندوحة البصرى ، إلا إذا كان يرى الفضل للمتقدم ، أو استن طريقة الاستشهاد الأدبى مثل عصر الاستشهاد عند النحاة ، وكان يمكن أن تكون اختياراته إضافة متميزة عن سابقيه ؛ لأنه من المتأخرين حيث خنق منتصف القرن السابع ، وقبله قرون عديدة تتراحب فيها الاختيارات ، التى لم تذكر المحدثين إلا لتشابه معانيهم بمعانى المتقدمين أو صلتها بها ، ويزيد العجب أكثر أن يتجاهل الأندلس تمامًا ، إلا من ذكره يوسف بن هارون الرمادى ، وأسقطه فى نسخة تالية ، لقد أخذ المشاركة على ابن عبد ربه مادته المشرقية - فى أغلبها - وقالوا : بضاعتنا ردت إلينا ، فما باله يسقط أقاليم متعددة تسمى المغرب الإسلامى وفيه الأندلس والبرتغال - حالياً - وفيه شعراء من عصر بنى أمية ، ومن بعده ، أجادوا وظفروا باستحسان المشاركة حتى إن المتنبى يقول لصاحبه : أنشدنى للمليح الأندلس يعنى : ابن عبد ربه .

أما الرمادى ويلقب «بأبو جنيش» ترجمة للكلمة الإسبانية El Ceniciento نسبة إلى Ceniza وهى الرماد ، فقد كان شيوخ الأدب فى وقته يقولون عنه : فتح الشعر بكندة ، وختم بكندة يعنون : امرؤ القيس والمتنبى ويوسف الرمادى ، وقد توفى ٤٠٣ هـ ، وكان بينه وبين المتنبى تغاير وتعليقات من كليهما على شعر الآخر ، ليست فى صالح شعرهما على كل حال ، ويرى أنخل جونثالث بالنثيا أن الرمادى ليس نسبةً إلى بلد يسمى رمادة ، وإنما هو الصورة العربية لكنيته

بالإسبانية الدارجة أبو جنيش ، مثل هذا الشاعر كان على المؤلف الشرقى أن يعتد به وأن يدرجه هو وقرنائه الكبار فى مصنفه ، وربما كان الرجل يصنع ما صنعه بعض الأندلسيين من ذكر أدبائهم على سنة المشاركة ، كما فعل ابن بسام فى الذخيرة مثلاً ، وواحدة بأختها أو أشد منها ، وإن كان الشترينى (ابن بسام) لم يغفل المشاركة حيث تحدث عن الإغارة أو السلخ للمعانى الشعرية ، ومصنفه حافل بذكر أمثال ابن الرومى والنواسى ، وحبيب بن أوس وإخوان هذا الطراز ، وقد جوزى البصرى بشيء مما فعل من التجاهل ، فتجاهله حتى من عاصره ومن تلاه ، هل نشعر بشيء من الشماتة فيه ؟ ربما ، لكنها شماتة بيضاء تذكر له فضله ، وتوقره ، وتحترم منهجه وإن خالفته .

ومختارات البصرى - كغيرها - بابة كبيرة لدراسة ما أسماه القدامى «السرقا الأدبية» بتفريعاتها المتعددة ، أو ما يسمى حديثاً «التناص» وإن كان صديقى محمود الطناحى - رحمة الله عليه - ينكرها مستقلاً ، لأن ورود المعانى المتشابهة - خاصة فى الحماسة البصرية - متعاقبة ومنصوصا عليها تفتح مجالاً للدرس النقدى عن أصالة الشاعر ، وتطور المعانى الشعرية ، وصياغتها ، والأخذ الخفى لشاعر من شاعر سالف ، وتصريف الكلام ، وحسن التأنى أو سوئه ، وقد وقفنا أثناء القراءة على كلام حسن للمؤلف والمحقق ، وربما كان رثاء أبو تمام لمحمد بن حميد الطوسى فى «رائيته» المشهور وسلخه بعض المعانى ، بل الأبيات الكوامل من شاعر غير معروف هو «أبو مُكْنَف» من هذه البابة وقد فطن دعبل الخزاعى إلى ذلك وإن كذب الناس دعبلاً ، والقضية لها نظائر فى الحماسة ، وتحتاج إلى تقصٍ رحب ، ربما يصلح مجالاً لدراسة جامعية ؛ شريطة أن يكون الباحث من الحفظة لا من أشباه الباحثين هذه الأيام .

هل برئ هذا السفر الضخم مما يمكن أن تختلف حوله وجهات النظر؟ لا نعتقد، وإن كان هذا الاختلاف يسيراً ، يقف فحسب لدى الجزئيات ، وربما كان الوقوف عندها من التحنث والتنطس الذى لا يريغه إلا أمثال عادل سليمان ، حيث يأخذ نفسه بكثير من الحرج العلمى المحمود ، وبسعة الصدر التى ترى الاختلاف فطرة إنسانية ، بأصل الخلقة قبل الاتفاق ، ولماذا ندور ونداور حول الاختلاف ،

وعادل سليمان نفسه فى خاتمة مقدمته المسهبة ، قال : «يجب على كل قارئ للكتب القديمة أن يعاون ناشرها بذكر ما يراه فيها من أخطاء ؛ لتخلص من شوائب التحريف والتصحيح الذى منيت به وتخرج للناس صحيحة كاملة» ، وهو يحتذى فى ذلك شيوخ المحققين فى عصرنا ، الذين لا تأخذهم زعارة خلق ، ولا عزة بالإثم ، كبعض خفاف المحققين من الجامعيين ، وأشباههم . ولكننى معتقد أن فى بعض ما أذكره يمكن عزوه إلى أخطاء الطباعة ، وهى مما عمت بها البلوى . ورد ص ٥٣٠ بيت حاتم الطائي «الخالطون» وحققها النصب بالياء ، وإن كان للرفع وجه ، على تأويل نحوى ، لا نلجأ إليه إلا لضرورة ، وفى ص ٥٣٥ فى الحاشية بيت هو :

قد رضيناه فمت بدائك غيظا لا تميّن غريك الأدواء .

وصوابه حذف الهاء فى «رضيناه» أو بقاؤها مع حذف الفاء بعدها .

- ورد بيت الأعشى الهمدانى :

أيها القلب المطيع الهوى أنى اعتراك الطرب النازح

وهو من السريع ، صوابه «يا» للنداء ، وإلا كان صورة من المديد ، والقصيدة كلها من السريع .

- ورد بيت خريم بن أوس ص ٥٨٩ ، وهو مع الأبيات للعباس بن المطلب كما استظهر المحقق ، وشرحها محمود الطناحى فى مقالة له بالهلال :

أنت لما ولدت أشرقت الأرض وضاعت بنورك الأفق .

وهو من المنسرح ، صوابه «وأنت» وربما صح على نية الواو ، غير أنى لا أسيغ حذفها ، ولو كان لها تأويل عروضى كالخرم .

- أبيات تنسب لأدم ص ٦١٠ وهو منها براء ، وحسبها الإقواء الذى فيها ، وهى «حائية» مضمومة الروى ، فيها «وقل بشاشة الوجه المليح» وحققها الكسر على الصفة ، ورأى لها أبو سعيد السيرافى وجهاً هو نصب بشاشة وحذف التنوين ، وهى حجة نحوية عروضية داحضة وإن كان المحقق استظهرها ، وأنا مع المعرى فى

روايته «وغودر فى الثرى الوجه المليح» وهى وجهة شاعر لا نحوى ، ومعروف أن المعرى من شيوخ اللغة والنحو والعروض فرأيه أولى وأشعر ، وإن كانت الأبيات كاذبة النسبة لآدم .

- ورد شعر لصالح بن عبد القدوس ص ٨٧٣ .

رأيت صغير الأمر تنمى شؤونه فيكبر حتى لا يحد ويعظم

وورد شبيه له فيما بعد «فكيف كبرت ولم تكبرى» . والفعل على وزن فهو بكسر العين وفتحها فى المضارع من استعلاء السن ، أما أن يعظم فهو من باب «عُظم» ومنه قوله تعالى : ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [الصف ٣] .

- ص (١٠٠٢) ورد بيت قيس بن الخطيم :

رد الخليط الجمال فانصرفوا ماذا عليهم لو أنهم وقفوا.

ذكره المحقق بتسهيل همزة «أنهم» كأنه ارتأى أن الوزن يستوجبها ، مع أن الوزن يصح بتحقيق الهمزة ، وعليه فالروايتان صحيحتان من المنسرح .

- ص (١٠١١) ورد بيت مضر بن قرط المزنى :

فمت كمدا أو عش وحيدا فإنما أراك تكلفنى ما لا أراك تطيق

وصوابه حذف «أراك» الأولى وهو من الطويل .

- ورد ص (١٠١٥) بيت سودة بن كلاب القشيري :

لو سألت للناس يوماً بوجهها . سحاب الثريا لاستهلكت مواطره

ولعل من الصواب زيادة «واو» أو «فاء» فى أول البيت ، بدلا من اللواذ بالخرم وهو زحاف نستهجنه وإن كان وارداً . ونرى أيضا قلقاً فى «لنناس» بحرف الجر ، وربما كانت نسخة «ع» أضبط ، حين قالت الرواية «سألت ظمياء» .

- ورد (ص ١٦١٤) بيت يقول :

ترفع الصوت أحياناً وتخفضه كما يطن ذباب الروضة الهزج

لعل الصواب «ترفع» بتضعيف الفاء ، أو بزيادة «فاء» أوله وهو من البسيط ، ويراعى فك التضعيف فى الفعل «تمشط» فى ص ١٦٤٢ ، وفى الأبيات كلام جيد يخرج إخواننا المتوقرين ، ولكنه صادق وبرئ .

- ص (١٦٧٠) تحذف الفاء من البيت الثالث وهو من المنسرح ، كما تحذف «الواو» من البيت الأول ص ١٦٧٣ ، وهو من المنسرح كذلك ، وتضاف «واو» فى البيت الثانى ص (١٧٥٣) ليستقيم الوزن وهو من الطويل .

وثمة أوهام قلائل يصح عزوها إلى الطبع والتصحيح ، أو قراءة الفكر والذاكرة لا قراءة العين الباصرة وكلها مما كتب على المرء من النسيان والسهو والغلط ، وما نجا منه أحد ، وحبذا لو نشر المحقق الكريم دراسته الوافية عن الكتاب فى جزء مستقل ، ليكتمل العمل درساً وتحقيقاً ، ولكنه مع أخواته السالفات بناء شامخ فى التحقيق يشهد لعادل سليمان بعلو كعبه فى الفهم والتذوق ، ونخل الكلام ، وأنه امتداد كريم لتلك الذؤابة الكريمة من شيخة المحققين الكبار شاكراً وهارون ، وأنه قرين كريم لصنوه الراحل العلامة محمود الطناحى .

ولعل هذه الحماسة تذيب بين جمهرة القراء والأدباء والمتأدبين ، فتحتل مكانتها ومكانها بين أبناء العربية الأصلاء ، لا أبناء اللغو والمجانة من أدعياء الأدب والأدباء .

الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة

لابن بسام

المجلد الأول من القسم الثانى

تحقيق : الدكتور لطفى عبد البديع

طال انتظار الناس لاستكمال هذا الكتاب أكثر من ثلاثين عاما ، منذ أخرجت لجنة كلية الآداب - جامعة فؤاد الأول آنذاك - المجلد الأول من القسم الرابع عام ١٩٤٥ ؛ وكانت قد أخرجت من قبل القسم الأول فى مجلدين عام ١٩٣٩ و ١٩٤٢ ؛ وقد اضطلع بتحقيق المجلد الأول من القسم الثانى الدكتور لطفى عبد البديع ؛ وهو رجل تخصص فى الدراسات الأندلسية منذ أمد طويل ؛ مما يوحى بأن الكتاب صادف أهله ، لكن الكتاب - على صورته هاته - يشير جملة صالحة من المناقشات التى قد تشعر فى النهاية بأنه يحتاج لبذل جهد آخر ؛ حتى يخرج للناس على صورة قريبة مما وضعها ابن بسام .

عَوَّلَ المحقق - كما قال فى المقدمة - فى إخراجه على أربع نسخ : الأولى والثانية من مصورات جامعة القاهرة عن نسختين من مخطوطات دار الكتب الخديوية وعلى إحداهما تملكات بتواريخ ١١٤٢ و ١٣٦٢ و ١٣٣٥ . وقد رمزنا لها بالحرف «م» ؛ والأخرى ليس عليها شىء ؛ ورمزنا لها بالحرف «ح» ، والثالثة مصورة عن مخطوطة الرباط ورمزنا لها بالحرف «ط» ؛ والرابعة مخطوطة من خزانة عبد الحى الكنانى ؛ وهى من القطع الصغير وليس عليها تاريخ ورمزها «ك» .

بيد أن المحقق فاته - وهذا شىء له أهمية ضخمة - أن يرجع إلى نسخ أخرى هى أقدم بلا شك ، وإليه ثبَّتَ بما استطعنا الوصول إليه :

* نسخ القسم الثانى من الذخيرة - الخزانة الملكية بالرباط :

* رقم ٧٧٥٣ انتهى نسخه عام ١٠٠٢ هـ بخط أندلسى .
* رقم ٩١٣٣ انتهى نسخه يوم الخميس ٢٠ من شعبان عام ١٠٠٢ هـ ؛ يقع فى ٤٧٠ صفحة .

* رقم ٧٧٨٢ - بها نقص من الأول والآخر بخط مغربى .

* رقم ٩٤٩ - بخط مغربى .

نسخ الخزانة العامة بالرباط :

* رقم ٧٣٥ ميكروفيلم - مصور عن مكتبة خاصة لعباس ابن ابراهيم .

* رقم ٦٨٧ ميكروفيلم - صورته جامعة الدول العربية .

* رقم ٩٦٦ ميكروفيلم - صورته جامعة الدول العربية عن عباس بن ابراهيم ؛
ويقع فى ٤١٥ صفحة .

والصورتان الأخيرتان على قيد رمح من إقامة المحقق بالقاهرة .

* رقم ١٣٢٤ « د » راجع فهرس المخطوطات المصورة بجامعة الدول العربية ،
ويقع هذا الجزء فى ١٥٧ لوحة مسطرتها ٣٠ بخط مغربى ؛ وينتهى بترجمة
ابن سارة الشنترينى (منقول عن الزاوية الحمراء ورقمه ٤ بهذه الزاوية) .

* هذا ، عدا نسختين أخريين ؛ إحداهما بالخزانة الوطنية بالرباط رقمها ٢١٨٢ ،
وقد فرغ الناسخ منها فى زوال يوم الأربعاء ٢٤ من ذى القعدة عام ١٠٠٥ ؛
بخط أندلسى جميل مشكول ، وراجع بروكلمان ملحق ١ ص ٥٧٩ ؛ والأخرى
نسخة المجمع العلمى العراقى ببغداد كتبها محمد حمدى ، وانتهى منها ثامن
عشر من رجب ١٣٣٢ هـ ؛ بخط نسخ جميل ؛ تقع فى ٥٠٦ صفحات .

هذه النسخ تتفاوت حداثة وقدامة ، ومن بديه الأمور فى التحقيق أن على
من يضطلع به أن يوازن ويدقق ؛ ويرى كل نسخ الكتاب ؛ متخذاً بعد ذلك
من إحداها عمدة - وغالباً ما تكون أقدمها غير غافل عن استشارة الأخرى ؛
وأن يصف تلك النسخ التى رآها واعتمد عليها وصفاً دقيقاً كأن القارئ يراها ،
أما ألا يزيد المحقق عما فعلته لجنة الآداب عام ١٩٣٩ ؛ بل ربما قصر عنها -

وهى لها الصدر لأن هذه النسخ لم تكن قد ظهرت بعد - فهذا مما يتسع فيه أمد الخلاف بيننا .

وليت المحقق وقف عند مقدمته التى لاتتجاوز الصفحتين ؛ مع عدم استيفاء تلك النسخ الأخرى للكتاب ، بل أنه نعى - وحقه أن ينعى على ما صنعه هو فحكمه ينسحب عليه - على من سماهم صناع تاريخ الأدب ؛ لأنهم يكتبون فيه غير معتمدين على «الذخيرة» .

هذا صحيح من وجه ؛ باطل من وجه آخر ، فالذخيرة عدة هذا التاريخ ولكنها ليست عدته الوحيدة ؛ أن تتوقف الدراسة حتى نعثر على كل الكتب . وكثير منها رهن المخطوطات لم يعثر عليه ، بل إن بعضها التهمة الضياع فيما التهمة . ومن خطل رأى أن نطالب بالصمت حتى نعثر على كل شئ ؛ فالحفائر والنقوش والمخطوطات ؛ من شأن المحدث منها أن يصحح غلطاً اقترفه الدارسون ، لأنهم لم يتمكنوا من الاطلاع عليها فى زمن سالف ؛ ومن واجبهم أن يدرسوا وأن يتوصلوا إلى نتائج أبحاثها لهم سبل البحث العلمى الميسرة لهم آنئذ ؛ ولا تثريب عليهم إلا أن يتمسكوا بما وصلوا إليه قبل حين يبين فسادهم بما اكتشف من وسائل جديدة ، ولهذا جعلت الطبقات المختلفة للكتب ؛ ثم إن النتائج التى يحصل عليها مؤرخ الأدب قابلة للتغير ؛ لأنها مساوقة لطبيعة العلم ذاته .

بذل المحقق - كما قال - أقصى ما فى وسعه فى التصحيح والضبط وتحرير العبارة وتجلية الغامض وشرح الغريب وإزالة الإيهام ، والتعريف بالأعلام ، كل هذا جيد حين تكون العبارة ذات مدلول ؛ أما أن تفقد الكلمات معناها ويصير الكلام من قبيل الرصف والإنشاء ، فهذا مما لا يحسن السكوت عليه - كما يقول النحاة - ولئلا يكون كلامنا خاوى الدلالة ؛ إلى القارئ طرفاً من الملاحظات التى استطعنا العثور عليها ؛ مرتبة حسب ورودها فى صفحات الكتاب ؛ لتسنى المراجعة والمعاودة .

(١) رأيت هذه المصورات فى خزانة صاحبي الباحث عبدالله جمال الدين بمدريد .

ص ٢١ قال ابن عبدون :

يا نفحة الزهر من شوال وافانى خلوص رباك فى أنفاس آذار

علق المحقق فى الهامش : شوال علم علي شهر الفطر ؛ وجاز منعه من الصرف لوجود إحدى العلتين فيه ؛ وهى العلمية .

كلام فضفاض ، لأن هذا لا يجوز فى النثر ؛ إنما مناط جوازه فى الشعر فقط وهى ضرورة مستهجنة ؛ ثم أن عروض البيت زنتها «فاعل» ؛ ولا يستقيم ذلك إلا فى حالة التصريع فقط ، وليس فى البيت تصريع . وكان على المحقق الالتفات والتعليق .

ص ٢٢ من شعر المعتضد يخاطب أباه القاضى ؛ ورد هذا البيت فى قصيدته :

ولكنك الدنيا إلى حبيبة فما عنك لى إلا إليك ذهاب

البيت اقتبسه المعتضد من المتنبي ؛ وهو فى ديوانه شرح البرقوقى جـ ١ ص ٣٢٧ وكان الواجب أن يوضع بين قوسين تمييزاً له عن بقية أبيات القصيدة ، وأن يشار إليه فى الهامش منسوباً لصاحبه .

ص ٣٢ ورد بيت نسبه صاحب الذخيرة للمخزومى إبنى سعيد ؛ ونقل المحقق فى الهامش اسم هذا الشاعر ولم يعرفنا به ؛ وهذا شأنه الغالب فى كل تعريفه بالأعلام ، بل إنه أحياناً يترك غير المعروف ويعرف المعروف ؛ مثلاً يقول عن «سحبان» إنه مضرب المثل فى البلاغة ، ومثل «سحبان» معروف لدى تلاميذ المدارس الثانوية ؛ ليته فعل ذلك مع الأسماء التى جر عليها النسيان أو الغموض ذيله ، وهنا يفيد فائدة مطلوبة ، لكن مثل «سحبان» لا يكلفه شططاً بالرجوع إلى الكتب .

ص ٣٥ يقول ابن بسام : وناوله - الضمير للمعتمد ابن عباد - بعض نساءه كأس بللور مترعاً خمرًا ؛ ولمع البرق فارتاعت فقال :

ريعت من البرق ، وفى كفها برق من القهوة لماع

باليث شعري؛ وهى شمس الضحى كيف من الأنوار ترتاع

نسب المحقق هذين البيتين إلى بحر «الرجز» والصحيح أنهما من السريع ؛
ثم علق على كلمة «كأس» فقال : أنها مؤنثة مؤاخذاً ابن بسام على عبارته
الواردة بتذكيرها ، أما أن الكأس مؤنثة فهذا صحيح ؛ أما مؤاخذاً ابن بسام
فهى على غير وجهها ؛ لأن عبارته تحتمل الصحة ، فكلمة «متسرعا» تنصب
على الحالية على وجه راجح ؛ ولها نظير فى شواهد النحو :

نجيت يا رب نوحا واستجبت له فى فلك ماخر فى اليم مشحونا

وصاحب الحال فى المثلين نكرة ، ويسوغ فى مثالنا هذا التذكير أن كلمة
«كأس» مضافة إلى بللور ؛ وهى مذكرة ؛ والمضاف والمضاف إليه كالكلمة
الواحدة ، ومنه قول القرآن الكريم : ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ
حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل ١٢٣] ؛ ويجوز أن تجر الكلمة - وهنا
احتمال خطأ الناسخ - ووجه ذلك أنه فى حالة الإضافة «كأس بللور» يجوز
الإخبار أو الوصف بالتذكير والتأنيث مراعاة لأحد المتضايقين ، ومنه قول الله
فى القرآن الكريم : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف ٥٥].

ص ٣٥ ورد هذا البيت للمعتمد :

مهاة تخيرتها خلة لقد أحسنت مقلتى افتقادا

الصواب «مقلتاى» نحواً وعروضاً ؛ فهى فاعل «أحسنت» ؛ وإن أراد المحقق
«مقلتى» فى حالة الإفراد - إذ إنه لم يضبطها - فالبيت مكسور .

* فى ص ٥٠ «والذر يعذر فى القدر الذى حمل» يعلق المحقق بقوله : هذا
اقتباس ، ولكنه لم يحاول أن ينسبه لصاحبه ؛ وواضح أنه شطر بيت من
البيسط .

فى ص ٥٣ ورد هذا البيت :

أعين على نفسى بتزويد أنسها بلى ؛ وقولى لا شىء على حرام

كلمة «بلى» زائدة وبها يختل الوزن .

* ص ٥٤ «وكان الحصرى» بفتح الصاد المهملة ، والكلمة - كما ضبطها الدكتور زكى مبارك «الحصرى» بضم الحاء المهملة وسكون الصاد المهملة ؛ بعدها راء مهملة نسبة إلى عمل الحصر أو بيعها كما ذكر ابن خلكان ؛ ويرسمها علماء الاستشراق بهذه الصورة HOSRY وتاريخ الأدب يعرف رجلين بهذا الاسم ؛ صاحبنا هذا أبو الحسن صاحب القصيدة المشهورة :

يا ليل الصب متى غده أقيام الساعة موعده

والثانى أبو اسحق صاحب «زهر الآداب» (٢) .

* ص ٥٨ ورد بيت الخنساء :

ولولا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلت نفسى

يعزوه المحقق لبحر الهزج ، والصواب أنه من الوافر .

* ص ٦١ ورد هذا البيت للمعتمد :

والغير لا يفهم شيئاً فما يفتح إلا للرضاع فما

تقفيلة البيت الأخير فيها نظر، فزنتها «معلا» وقد قبح العرضيون ذلك، فضلا عن أن الزوق الموسيقي ينبو عنها نبواً فادحا، وقد رجعنا الي نسخة الديوان المطبوعة سنة ١٩٥١ بتحقيق الاستاذين أحمد بدوي وحامد عبدالمجيد فوجدنا ، البيت علي هذه الصورة :

والغير لا يفهم شيئاً فما يفتح إلا للرضاع فما

ونحن مع هذه الرواية ؛ إلا أننا نستنكر كلمة «الغير» الواردة فى الديوان ؛ لأنه لا وجه لها ؛ آخذين برواية الذخيرة ؛ لأن القصيدة كلها عن طفل المعتمد حين رأى أباه يوسف فى قيوده ويناسبه الوصف بالغرارة .

* ص ٦٣ ورد هذا البيت :

ماذا رمتك به الأيام يا كبدى من نبلهن ؛ ولا رام سوى القدر

(٢) راجع ما كتبه الدكتور زكى مبارك في تقديمه لـ (زهر الآداب) ج١ ص ب .

نعتقد أن الخطاب للكبد «رمتك» بكسر الكاف وهى مؤنثة .

ص ٧٥ «وإنما هو الفجر أو البجر» ؛ وردت فى كلام أبى حفص الهوزنى ، وكان على المحقق أن يعزوها لقائلها ، وهو أبو بكر الصديق حين حضرته الوفاة .

* ص ٧٦ ورد هذا البيت فى جملة أبيات للهوزنى أيضاً :

خبر ما جاءنا مصمئل جل حتى دق فيه الأجل

المعروف أن هذا البيت من قصيدة ذائعة الشهرة ، تنسب لتأبط شرا أو لابن أخته ؛ وهى من النمط الصعب على حد قول أبى عبيد البكرى فى كتابه «سمط اللآلىء» ؛ وقد تحدث عنها شيخ المحققين الأستاذ محمود شاكر حديثا ضافيا فى مجلة «المجلة» القاهرية ، فكيف غاب عن المحقق حتى ما يكتب فى المجلات التى يقرأها جمهرة الناس ، والهوزنى فى قصيدته هذه يثر النظر إلى تلك اللامية الجيدة ؛ ولكنه لم يدرك شأوها .

وقد ضبط الدكتور عبد البديع القافية بضمة واحدة فقط ؛ ولاندرى كيف ساغت لديه النغمة ، معلقا فى الهامش بأن تخفيف المشدد فى القوافى من الضرائر الشعرية ؛ كلام غريب ؛ لأن القافية مشددة ولا حاجة بنا إلى تلك الضرورة ؛ لأن التخفيف - بلا ريب - مفسد للوزن .

* ص ٧٩ ورد البيت الآتى معزوا لبحر الخفيف ؛ وصحته بحر الرمل :

لو بغير الماء حلقى شرق كنت كالغصان بالماء اعتصارى

* ص ٨٦ ورد هذا البيت ضمن قصيدة لأبى الوليد الباجى :

غداً نافرا ؛ لا أستطيع اقتناصه ولو أن لى يوم الحبيب حبائل

حرف الروى مضموم ، ونحن لا نعرف لها مساعا نحويا مقبولا ؛ فإن الكلمة حقها النصب اسما «لأن» ؛ وفى هامش الصفحة نفسها ورد هذا البيت معه بيت يسبقه فيه سقط :

فإن الرسول عليه السلام أحق العذاب على من صوره

البيت من المتقارب ، لكنه مختل الشطر الثانى .

* ص ٨٧ ورد هذا البيت :

يا قلب كم تلهنى كاذبا أو صادقا عن الهدى جائرا
كلمة «تلهنى» بضبطها هذا خطأ به ينكسر الوزن ؛ والصواب فتح اللام
بدون تشديد .

* ص ٩٣ ورد هذا البيت :

كأنما أنواره حلة من وشى صنعا السرى الرفيع
والصواب «صنعا» بألف التأنيث الممدودة رعاية للوزن .

* ص ٩٤ ورد هذا البيت :

ما هو إلا نور برهانه وحجة اللوطى على الزانى
لابد من حذف التشديد فى كلمة «الوطى» رعاية للوزن .

* فى ص ٩٧ ، واذكر قول الحسين :

وما رغبتى فى عسجد أستفيده ولكنها فى مفخر أستجده

علق المحقق فى الهامش بقوله «لعله الحسين بن مطير» ، كلمة «لعله» هذه
كثرت كثرة شديدة فى هوامش الكتاب ؛ مما يشعر القارئ بأن المحقق اعتمد
على ذاكرته وغالباً ما تخونه ؛ فالبيت من قصيدة مشهورة عارضها «البارودى»
فى العصر الحديث - وهى لابن الحسين المتنبى ؛ وكلمة «ابن» لعلها سقطت
من النسخ لأن صاحب الرسالة ، وهو أبو الوليد المعلم ، راعى السجعة بين
كلمة «عين» قبل كلمة «الحسين» ؛ وكان يستطيع أن يقول «المتنبى» مراعاة
للدكتور عبد البديع ؛ لكنه نصب له شركا ، والقصيدة فى ديوان المتنبى شرح
البرقوقى ج ٢ ص ١٣٠ .

* ص ١٠٢ ورد هذا البيت :

أيام أُمِرَ فى الصبابة خالعا وسنى ؛ وأسحب فى المجون ذيو لا
الصواب «رسنى» بالراء لا بالواو .

* ص ١١١ ورد هذا البيت :

مزجت حمرة اليواقيت بالدر فجاء به على حسب ذاته
البيت بصورته مرتبك مختل الوزن ، لعله يستقيم بزيادة ألف «فجاء» وهو
من الخفيف .

فى الصفحة نفسها جاءت ثلاثة أبيات :

كأن نور الكتان حين بدا وقد جلا حسنه صدا الأنفس
أكف فيروزج معاصمها قد سترتهن خضرة الملبس
أو لا؛ فزرق الياقوت قد وضعت على بساط يروق من سندس

ضبط المحقق حرف الروى بالكسر ، وهذا صحيح وزناً حسب الدائرة
العروضية ؛ أما الواقع الشعرى - حسب علمنا - فلم يرد ضرب المنسرح
صحيح التفعيلة «مستعلن» وعلى هذا نعتقد سكون السين ؛ وتكون التفعيلة
مزاحفة «مستفعل» .

* ص ١١٢ ورد هذا البيت :

تزيد^(٣) ذوى الألباب فضلا ولم تزل تزيل بطبع الجود من طبع البخل

شرح المحقق «طبع» بالتحريك جمع طبع وهو السجية ، ونحن نختلف معه
فى هذا الفهم ؛ فالطبع بالتحريك هنا الدنس ؛ والشاعر يريد أن يقول : إن
للبلخل دنسا لا يزيله إلا الجود الذى تكسبه الخمر شاربها ، وقريب من هذا
المعنى بيت المتنبى :

وما الحياة ؛ ونفسى بعدما علمت إن الحياة كما لا تشتهى طبع^(٤)

* فى ص ٢٢٠ ورد هذا البيت :

بأيهما أنا فى الحب باد بشكر الطيف أم بشكر الرقاد

لابد من حذف الباء فى «بشكر» الثانية ليستقيم الوزن .

(٣) الضير للكأس .

(٤) راجع شرح البرقوقى للديوان والقاموس المحيط مادة «طبع» .

* ص ١٢٤ ورد هذا البيت :

خود وثير نصفها ونصفها مهفف

نسبه المحقق إلى مجزوء الكامل ؛ وصوابه مجزوء الرجز .

فى هامش الصفحة نفسها فسر المحقق كلمة «لفاوان» فقال إنها مثنى «لفاو» والصواب «لفاء» تقلب ألف التأنيث الممدودة واوا عند التثنية فى مثل هذه الحالة .

* ص ١٣٠ ورد هذان البيتان :

نطق العود فعاتب من نطق واصطحبها مزة أو فى فاغتبق

لا تدعها قهوة كرخية لم يدعها نوح إذ خاف الفرق

الشرط الثانى من البيت الأول لابد من حذف «فى» ليستقيم الوزن ، أما الشرط الثانى من البيت الثانى فنحن نعتقد تنوين «نوح» مع تسهيل همزة «إذ» مع أن رواية المحقق صحيحة ؛ إلا أننا أميل لهذا التصحيح ، لكن صرف «نوح» أرجح من منعها من الصرف ؛ لأنه علم ثلاثى ساكن الوسط ، وقد وردت فى القرآن الكريم أكثر من مرة مصروفة .

* ص ١٣٥ ورد هذا البيت :

ماذا على الناس من الناس ما أحقق بعض الناس يا ناس

الشرط الثانى مختل الوزن ربما استقام مع صيغة التعجب الأخرى «أحقق ببعض الناس يا ناس» ؛ لكننا نقف عند كلمة «ربما» غير متجاوزين .

فى هامش الصفحة نفسها وردت أبيات للطغرائى فى صفة النيلوفر ؛ آخرها فى هذا البيت :

أنامل أصباغ صبغن بنيله ورحته بيضاء فى وسطها تبر

الشرط الثانى مختل وزنًا ، يستقيم هكذا «وراحته بيضاء» ؛ أما الشرط الأول فلا يستقيم قراءة ولا معنى ؛ وقد ورد فى ديوان الطغرائى (٥) :

أنا مل'أصباغ صبغن بنيله
وراحته بيضاء فى وسطها تبر
وعليه يستقيم الفهم .

* ص ١٣٨ ورد هذان البيتان :

وابيض ذا وأسود هذا
اجتمع الليل والنهار
خد جرى للنعيم فيه
ما بأحشأى منه نار
الشر الأول من البيت الأول مختل الوزن ، والشر الثانى من البيت الثانى
مختل أيضا .

* ص ١٥٢ ورد هذا البيت :

هم نقضوا ميثاق عهدك عنوة
فأوثقهم فى ربة الأسر موثق
لا بد من حذف التشديد فى «موثق» ليستقيم الوزن على عيب فى القافية -
فى رأى أصحاب العروض - لكنه محتمل ووارد بكثرة ؛ ولسنا معهم فى
استهجانهم إياه .

* ص ١٦٨ ورد هذا البيت :

أهنيك أم هذا الأنام بأنعم
الصواب «الأنام» بالنصب ، عطفًا على ضمير المخاطب المنصوب .
جميعهم فى حليها يتبختر

* ص ١٧١ ورد هذا البيت :

لا تقس غرس ربنا
بالذى يغرس البشر
حق حرف الروى السكون ، ولا استقامة للوزن بغيره : وهو من مجزوء
الخفيف .

* ص ١٧٤ ورد هذا البيت :

بان وصف الأقاحى
الذى وصف لم أرضه
صوابه «الذى» وفى البيت تدوير .

فى الصفحة نفسها جاء هذا البيت :

وسوسن قد حكى سوالف الغيد فضه

الشر الأول مختل الوزن ، والبيت من جملة أبيات من بحر المجث ؛
وتفعيلته الثانية «فاعلاتن» لا «فاعلن» كما وردت هنا .

* ص ١٨٣ ورد هذا البيتان :

سقانى كأسه ولها ديب زادنى ولها

غزال إن رأى ولهى زها عن قصتى ولها

عزاهما المحقق إلى بحر الهزج ؛ والصواب أنهما من مجزوء الوافر .

* ص ١٩٠ ورد هذا البيت للمتنبى مادحاً على بن منصور الحاجب فى قصيدة
تعرف بـ «الدينارية» .

فى رتبة حجب الورى عن نيلها وعلا ، فسموه على الحاجبا

ضبط المحقق «حجب» مبنيًا لما لم يسم فاعله ؛ المعنى يحتمل ذلك ، لكن
رواية الديوان «حجب» مبنيًا للفاعل ؛ ونحن إليها أميل ؛ مساوقة للفعل «علا»
المبنى للفاعل أيضا ؛ ولأن المعنى أجدر بالمدح مع هذه الصيغة ، فالممدوح معها
صنع شيئاً إيجابياً به يستأهل المحمدة ؛ ولأن هذه الصيغة أيضاً أشكل بمنهج
المتنبى من إسناد الفعل إلى الإرادة الإنسانية ، وإلا فأى فضل للممدوح حين
حجب الورى - بضم الحاء - عن نيل رتبته ؛ إن هذا إلى الهجاء أقرب منه إلى
المدح .

فى الصفحة نفسها ورد هذا البيت :

ما كل ناضر دوحة روضا ولا كل ضياء راق حسنا كوكبا

نعتقد أن الصواب «كل ضياء» بالإضافة ليستقيم المعنى على وجهه مساوفاً
لصدر البيت ، والذى أشكل على المحقق صيغة «مفتعلن» فى بحر الكامل ؛
فضبطها بتلك الطريقة الواردة فى الكتاب تخلصاً من المأزق الموسيقى ، مع
العلم بأن صيغة «مفتعلن» صحيحة وواردة فى بحر الكامل ؛ لكن على قلة .

* فى ص ١٩٣ ورد هذا البيت :

تسمى اللحم ؛ وليس مشابهة وكيف يشتهه المخدم والخدم

ترك المحقق اسم البحر على غير العادة ؛ وهو من البسيط ، ونعتقد أن الصواب «تسمى» بحذف تشديد الميم لإقامة العروض وإن كان لا يستقيم .

* ص ١٩٦ ورد هذان البيتان :

يا ثوبه الأزرق الذى قد فاق العراقى فى السناء

كأنه فيه بدر تم يشق فى زرقة السماء

نسبهما صاحب الذخيرة إلى ابن برد فى هذا المجلد ، ونسبهما إلى ابن الرومى فى القسم الأول - المجلد الثانى ص ٣٧ - والصواب أنهما لابن الرومى ؛ وقد وردا فى ديوانه الذى طبع أخيراً بتحقيق الدكتور حسين نصار فى ج ١ ص ١٣٧ ، كان على المحقق أن يستوثق من هذه الأبيات راداً إياها إلى قائلها .

بقيت مسألة توثيق الأبيات وتخريج الأحاديث ؛ والاقتباسات الثرية ، وهو جهد لم يبذل المحقق فيه عناء يذكر ؛ وإنما اعتمد على الذاكرة فقط ، وأسعفته كلمة «لعل» فى أغلب الأحيان ؛ تاركاً معظم الأبيات والأحاديث دون توثيق وتخريج ، ولنكتف بمثالين فقط ؛ مشيرين بعدهما إلى أرقام الصفحات دون إئصال على القارئ بذكر الشواهد .

* فى ص ١٢٥ ورد هذان البيتان :

أبت الروادف والشدى لقمصها مس البطون ؛ وأن تمس ظهوراً

وإذا الرياح مع العشى تناوحت نبهن حاسدة ، وهجن غيوراً

ترك المحقق نسبة هذين البيتين ؛ وهما لعمر بن أبى ربيعة ، وقد تحدث عنهما أستاذنا العقاد حديثاً طويلاً باعتبارهما نموذج الجمال عند العربى القديم ؛ فى كتابه «شاعر الغزل» .

* فى ص ١١٠ ورد هذا البيت :

أين الحدود من العيون نفاسة ورئاسة لولا القياس الفاسد

ترك المحقق نسبته أيضاً ، وهو لابن الرومي ؛ من قصيدة مشهورة في ذم
الورد وتفضيل الترجس عليه ؛ وقد أثار موقف هذا الشاعر من الورد معارضات
كثيرة حتى اتهم بأنه «جعلى» .

* وإلى القارئ أرقام الصفحات :

٢١ و ٤٧ و ٥٠ و ٧٥ و ٧٦ و ٧٩ و ٩٦ و ٩٧ و ١١٠ و ١١٣ و ١١٤ و ١٢٥
و ١٣٤ و ١٦٦ و ١٩٦ .

* هذا ما توقفنا عنده من ملاحظات تاركين ما يصح عزوه إلى الأخطاء المطبعية ،
مؤكدین اغتباطنا بصدور هذا المجلد من الذخيرة ، منتظرين ما بقى من هذا
السفر الجليل .